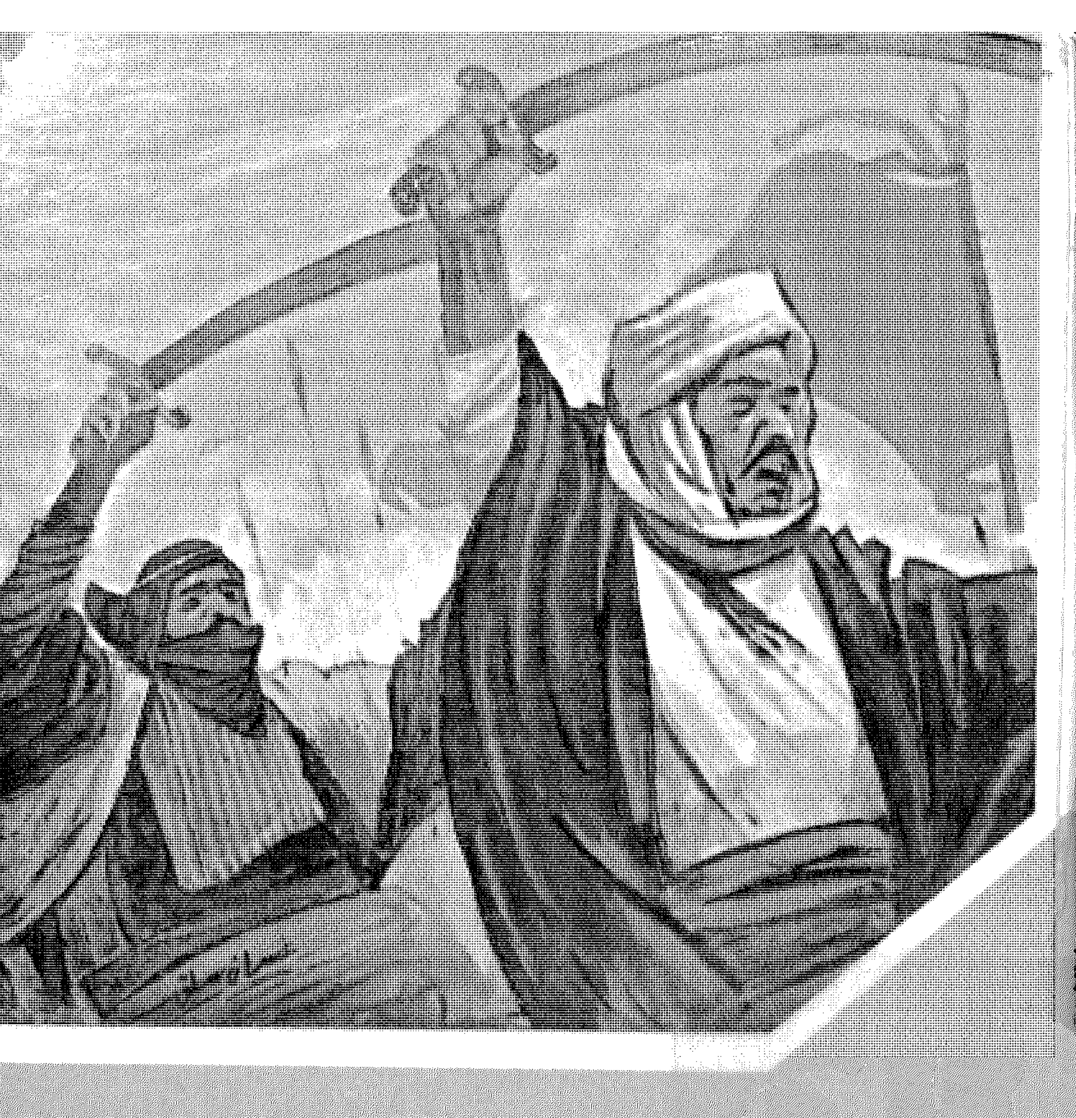


معركة الارك

دار الشرق العربي
بيروت - شارع سورية - بناية درويش

معارك حربية فاصلة

عربية واسلامية

معركة الارك

٥٩١ هـ / ١١٩٥ م

الدكتور صالح الأشتر

دار الشرق العربي

بيروت - شارع سورية - بناية درويش

تمهيد

استمَرَّ الوجودُ العربيُّ الإسلاميُّ في الأندلس ثمانية قرون منذ تَمَّ فتحُهَا عام ٩٢هـ إلى سُقُوطِ غرناطةَ واستسلام آخر ملوكِ بني الأحْمَر فيها عام ٨٩٧هـ، وخلالَ هذهِ القُرُونِ الثمانيةِ كان النَّصَارى الإسْبانُ يترقَّبُون الفُرْصةَ السانِحَةَ لاستردادِ الأندلسِ وطَرْدِ المسلمين الفَاتحين منها، وقد اتَّخَذَتِ المُقَاومةُ النصرانِيَّةُ للفتحِ الاسلاميِّ من شمالي الجزيرةِ الايبيريَّةِ وجِبَالِ البيرنه مركزاً لِنَشَاطِهَا وعملياتها وغَارَاتِها على الوِلاياتِ الإسلاميَّةِ، ولكن يقظةَ الحُكْمِ الإسلاميِّ وقوّمَه كانتا للمقاومةِ النَّصْرانيَّةِ الشّماليةِ بالمرْصَادِ، إلى أنْ تمَّ انهيارُ الدَّوْلةِ الأمَويَّةِ في الأندلسِ، وقام على أشلائها عَدَدٌ من الإمَاراتِ الصغيرةِ المُتَنَافِسَةِ، وبدا ضَعْفُ المسلمين في دُوَيْلاتِ ملوك الطّوائف، فتشجَّعَتْ المقاومةُ النصرانيةُ، وأصبحتْ تُطَارِدُ المسلمين، وانتظمَتْ قُوَّاتُهَا في جيوشٍ، ونشأتْ عدّةُ ممالكَ نصرانيَّةٍ، وهدفُهَا أنْ تستوليَ على أراضي المسلمين وتُخْرِجَهُم من الأندلسِ، ولكنَّ المسلمين الأندلسيين ــ رغم ضعفِهِم وتفرُّقِهم ــ كانوا يصمدون لِلغَاراتِ النّصْرانيةِ ويصدونها، ثم ضَعُفُوا عن التصدي لها، بَعْدَ أنْ دَبَّ

الخِلافُ والتنافُسُ بين دُوَيْلاتِهم، وأصبحَ الوجودُ العربيُّ مُهَدَّداً بالزَّوالِ من شِبْهِ الجزيرةِ كلِّها! حينذاك يستغيثُ مسلمو الأندلسِ بالمُرَابطين المَغَاربةِ، ويَهبُّ هؤلاء لِنُصْرَةِ اخوانِهم، وتقعُ مَعْركةُ الزَّلَّاقَةِ عام ٤٧٩هـ، ويُنْقِذُ النصرُ الاسلاميُّ الحاسمُ فيها الوجودَ العربيَّ والاسلاميَّ في الأندلسِ، ويُطيلُ عُمْرَ بقائهِ، ويمنحه القُوَّةَ على الصمودِ والاستمرارِ لمدةٍ تزيدُ على القَرْنِ!

ثم يعودُ النَّصَارى إلى تَهْديدِ الوجودِ الاسلاميِّ في الأندلسِ ثانيةً، عند اضمِحْلالِ قُوَّةِ المرابطين، وعجزِهم عن سَحْقِ ثورةِ المُوَحِّدين في المغربِ عليهم، وتنتهزُ الممالكُ النصرانيةُ الفُرْصَةَ السانِحَةَ، فتوالي غاراتِها على المُدُنِ والحُصُوْنِ والقِلاعِ الإسلاميَّةِ، ومسلمو الأندلسِ عاجزون عن الصمودِ والتصدّي لها، وحينذاك يَنْهَضُ الموحّدون المغاربةُ لانقاذِ اسبانيا الاسلاميَّةِ، وتقعُ مَعْركةُ الأَرْكِ عام ٥٩١هـ، ويُحَقِّقُ الموحدون فيها نَصْراً حاسِماً على مَمْلكةِ قشتالة، كبرى الممالكِ النصرانيَّةِ الإسْبانيةِ، وبانتصارِهم في هذه المَعْركةِ الفاصِلَةِ التي يَعُدُّها المؤرخون أختاً لمعركةِ الزَّلَّاقةِ، يتمُّ انقاذُ الوجودِ العربيِّ والإسْلاميِّ، لفترة أخرى طَويلةِ الأَمَدِ.

وغايتُنا في هذه الحَلْقةِ من سلسلةِ المَعَارِكِ والبطولاتِ الحربيَّةِ، العربيَّةِ والاسلاميَّةِ، أنْ نُقدِّمَ صورة لمعركة الأَرْكِ الحاسِمةِ، نتتبَّعُ فيها

أحداثَهَا، ونحلِّلُ أهمَّ وقائعها، ونُبرِزُ ملامحَ أبطالها، وفي ذلك درسٌ لشبابنا، وبعثٌ لأمجادِ أمَّتِنا، وتخليدٌ لبطولاتنا، وإحياء لِعزَّةِ ماضينا، وتذكيرٌ بما ينبغي أنْ يكون عليه حاضرنا..

والله من وراء القَصْدِ

الممالك النصرانية في شمالي اسبانيا

على أثرِ انْهيار الدولةِ الأمَويَّةِ في الأندلسِ، وقيام دُوَيلاتِ مُلُوكِ الطَّوَائفِ على أنْقَاضِها، ضَعُفَتْ قوةُ المسلمين، ووجَدَتِ الممالكُ النصرانِيَّةُ في الشَّمالِ الفُرْصَةَ سانحةً لِلقضاء على الوجودِ العربيِّ في الأندلسِ، وَانْتِزَاعِ شبهِ الجزيرةِ الايبيرية كلِّها من أيدي المسلمين، بعد أنْ غدوا إماراتٍ صغيرةً مُتَنافِسَةً مُتَفرِّقةً، وكان ملكُ نافارا «سانشو الكبيرُ» ــ وَاسْمُهُ في المصادرِ العربيَّةِ: شانجة ــ أكْبَرَ ملوك النَّصْرانيةِ الطامحين إلى طَرْدِ المسلمين من اسبانيا، وكانتْ مملكتُهُ تَشْمُلُ بلادَ الباسك (البشكنس) فيما

وراء جِبَالِ البيرنه، وكانتْ هذهِ الجِبَالُ تؤلِّفُ حاجزاً طبيعياً بين الأندلسِ الإسْلاميَّةِ وبين بلادِ الفرنجةِ وممالِكهَا.

غير أنَّ القَدَرَ لم يُمْهِلْ سانشو ملكَ نافارا لِيُحقِّقَ أحلامَهُ، فتوفي عام ٤٢٦هـ/١٠٣٥م، واقتَسَمَ أولادُهُ الأربعةُ مملكتَهُ، ففاز فرويناند ملكُ قشتالة بَعْدَ ضَمِّ مملكةِ ليون، إثْرَ وفاةِ صِهْرِهِ إليه، بأكبرِ نَصِيبٍ إذْ أصْبحتْ مملكةُ (قشتالة وليون) أكْبَرَ تلك الممالِكِ الشَّماليَّةِ وأقْوَاها، في حين أنَّ إخْوتَهُ الثلاثةَ الباقين كانوا يَحْكُمُونَ ممالِكَ هَزِيلةً لا تعدلُ في مساحَتِهَا مجتمعةً ثُلُثَ مملكتِهِ: وهي مملكةُ نافارا في غَرْبِ البيرنة، ومملكةُ أرغون، ومملكةُ سوبراب في أواسطِ البيرنة! فإذا أضفْنا إلى هذه المَمَالِكِ النصرانيَّةِ الأربعِ مَمْلكةً خامِسَةً (إمَارةَ برشلونة أو قطلونية)

المُمْتَدَّةَ على شاطىء البحرِ الأ بيضِ المتوسطِ، والتي يحكُمُهَا ريموند برنجار، نَجِدُ أنَّ القُوَّةَ النصرانِيَّةَ التي كانتْ تتربَّصُ الدوائرَ بِمُسْلمي الأندلسِ، لِتطردَهُم منها، قد تفتَّتَتْ وحدتُها، وتمزّق شملُها؛ و بذلك أتيحَ لاسبانيا الإسْلاميةِ أنْ تَنْجوَ من القَضَاء المُبكِّر عليها، فاستمَرَّ الوجودُ العربيُّ في اسبانيا خمسمائة عامٍ أخرى، قبل أنْ يَزُولَ أمامَ أعدائهِ، و يتمَّ إخراجُ المسلمين من إسبانيا كلِّها.

لقد أضَاعَ الأمراء النصارى، بِتَفرُّقِهِم وتباغُضِهِم وتحاسُدِهِم، الفُرْصةَ لِلقضاء على دُو يلاتِ ملوكِ الطّوائفِ، وشُغِلُوا عنها بالحروبِ الدَّاخِليةِ، فكانتِ المعاركُ الدمويَّةُ بين الاخوةِ من أبناء سانشو الكبير لا تَنْقَطِعُ، وتَحَالَفَ بعضُ الاخوةِ مع المُسْلمين لِلاسْتيلاء على مُلكِ أخيهِ، أمَّا أقْواهُم وهو مَلِكُ

قشتالة وليون، فقد اكتفى بِالأسْتيلاء على عَدَدٍ من الحُصُونِ والقِلاعِ الإسْلامِيَّةِ المُجَاوِرةِ، وبفرضِ الجزيَةِ على مُسْلمي طليطلة وسرقسطة بَعْدَ حِصَارِهِ للمدينتين، ثم انصرَفَ إلى مُحَاربَةِ أخيه ملكِ نافاراحتى استطاع أَنْ يَضَمَّ الجُزْء الأكبرِ من أراضيه إلى مملكتِهِ، فاتَّسعَتْ بذلك رقعتُهَا، ممّا زاد في حَسَدِ أخوتِهِ الآخرين، وتوجُّسِهِم منه، فَانْدَلعَتْ بينَهُم الحروبُ الأهليَّةُ، وانتهتْ بمصارِعِهِم، وازديادِ رُقْعَةِ سُلْطانِهِ!

ولكنَّ المأساةَ تتكرَّرُ ثانيةً مع أولادِهِ: فقَبْلَ وفاتِهِ عام ٤٥٧هـ/١٠٦٥م قسَّمَ فرونياند مملكتَهُ الواسعةَ بين أولادِهِ الثلاثةِ: سانشو وألفونسو وجارسيا، ولكنّ ألفونسو يَغْتَالُ أخاه سانشو، ويزجُّ بأخيه الآخر جارسيا بالسِّجْنِ، حيثُ يظلُّ يَرْسُفُ في أغلالِهِ زُهَاء ثمانيةَ عَشَرَ عاماً، ليتمكَّنَ (ألفونسو

السادس) من جَمْعِ الممالِكِ الثلاثِ تحت حُكْمِهِ، بِالجَرِيمَةِ والخِيَانَةِ والغَدْرِ، ثم يَنْصَرِفَ إلى مُنَاجَزَةِ الإمَاراتِ النصرانيةِ الصغيرةِ الأخرى التي يَحْكُمُها بعضُ أبناء عمومَتِهِ!

وهكذا نَشْهَدُ تحوُّلَ الممالكِ النصرانيةِ الاسبانيةِ في الشَّمَالِ إلى مملكتين هما مملكةُ قشتالة ومملكةُ أرغون، عن طريقِ العُنْفِ والإرهَابِ والغَدْرِ والحربِ الأهليةِ، بالإضَافةِ إلى إمَارةِ برشلونة التي كان حاكمُهَا ريموند برنجار مُنْصَرِفاً إلى محاربةِ جيرانِهِ المُسْلمين، وانتزاعِ بَعْضِ أراضيهم المُجَاورةِ لإمارَتِهِ.

المرابطون يُنقذون الأندلسَ في معركة الزَّلاَّقة

كان المسلمون في الأندلسِ، خِلالَ هذه الفترةِ المُضطرِبةِ، يُعانون في ظلِّ ملوكِ الطّوائفِ ألواناً من التَّخاصمِ والتطاحنِ والصِّراعِ الداخلي، لا يَقِلُّ ظُلْمَتِها واضطرابها عن حالِ الممالِكِ النَّصْرانيةِ في الشَّمالِ، ولم تكنْ تلك الدويلاتُ الإسلاميَّةُ المُتفرِّقةُ والمُتنافِسَةُ، لِتتورَّعَ أحياناً عن التَّحالفِ مَعَ بعضِ الممالكِ النصرانيةِ لاسْتِمْرارِ عونِهَا والفَوزِ بمُؤازرتِهَا، نَظِيرَ دفعِ الجزيةِ إليها. وكان الملوكُ النصارى يَنْتَهزُونَ فُرْصَةَ ضَعْفِ تلك الدُّوَيلاتِ، لِيَشُنُّوا الغاراتِ عليها، ففي عام ٤٧٢هـ/١٠٧٩م أغار

ألفونسو السادِسُ على طليطلة ــ وقد كان قبْلَ حينٍ مُلْتجئاً إلى مسلميها من مُطارَدةِ أخيه سانشو له، فاستفاد من مَعْرفتِهِ بنوا حي طليطلة خلالَ فترةِ نَفْيِهِ فيها ــ لِلْغَدْر بالمسلمين الذين بَذَلوا له العَوْنَ والحِمَايةَ أيّامَ محنَتِهِ، فسقَطَتِ المدينةُ بعد حِصَارٍ طويلٍ وحروبٍ لا تنقطِعُ، في عام ٤٧٨هـ/١٠٨٥م وعادتْ طُلَيْطِلَةُ مدينةً نَصْرَانِيّةً بعد أنْ حَكَمَها المسلمون ثلثمائة واثنين وسبعين عاماً، وأصْبحتْ حاضِرَةً لمملكةِ قشتالة، وغَدَتْ بذلك عاصمةً لاسبانيا النصرانيّةِ الزّاحفةِ، في وقتٍ كان الصِّراعُ فيه بين إمارتي اشبيلية (بنو عبّاد) وغرناطة (بنو حمود من الأدارسة) المسلمتين على أشُدِّهِ، وبسقوطِ طليطلة في يدِ ألفونسو السّادِسِ أصبحَ مَلِكُ قشتالة لا يكْتُمُ نواياه وعزمَهُ على افتتاح الوِلاياتِ الإسْلاميةِ

كلِّها في الأندلسِ، وعندما رَفَضَ أميرُ اشبيلية المُعْتَمِدُ بنُ عبّادٍ أنْ يتخلّى له عن بعضِ الحُصُونِ الباقيةِ في وِلايةِ طليطلة أعلن ألفونسو الحربَ عليه، كما أعلَنَهَا على سائرِ أمراء الطّوائفِ المسلمين الآخرين، وقد شجَّعَهُ على ذلك ما رأى من تفرُّقِهم وتعاديهم وتخاذُلِهم وضَعْفِهِم، فاستهان بهم جميعاً! حينذاك ضجَّ المسلمون في الأندلس، ورأى كلُّ أميرٍ في دُوَيلتِهِ أنَّه مهدَّدٌ بمصيرٍ حالكٍ قريبٍ، كمصيرِ طليطلة، وأمامَ الخطَرِ المُشْتركِ الدَّاهِمِ لم يجدِ المتفرِّقون بُدّاً من أنْ يتَّحِدُوا لِردِّ العدوانِ عليهم، ولكنهم وجدوا أنَّ قواهم مُجتمعةً لا تكفي لصدِّهِ، فاتفقتْ كلهُمْ على توجيه صرخَةِ الاستغاثَةِ إلى حُكّامِ المغربِ (المُرابطين) واستدعائهم إلى الأندلسِ لِنجدةِ المسلمين فيها..

وهكذا عَبَرَتْ جيوشُ المرابطين البحرَ، بِقيادَةِ أميرِ المسلمين يُوْسُفَ بنِ تاشفين عام ٤٧٩هـ/١٠٨٦م لِنُصرةِ مسلمي الأندلسِ، فأسرع ألفونسو السادسُ لِلتَّحالفِ مع مَلِكِ أرغون وأميرِ برشلونه، ووفَدَتْ على قواتِهِم المُتَحالفةِ سرايا من الفُرْسانِ، من وِلاياتِ فرنسا الجنوبيةِ، سعياً وراءَ المغانِمِ المُنْتظرةِ، وإغَاثَةً للنصارى الاسبانِ، وتلاقَتِ الجُموعُ المُحتشدةُ الهائلَةُ من النصارى ومسلمي الأندلس والمغرب في معركةٍ حاسِمَةٍ، عند سَهْلِ الزَّلاَّقَةِ، قُرْبَ مدينةِ بطليوس، حيث قاتل كلٌّ من الفريقين باستماتَةٍ، ولكنَّ المرابطين كانوا في ذلك اليومِ العصيبِ أبطالاً مُجَاهدين، يتشوَّقون إلى الشَّهَادةِ، و يرغبون في الموتِ، فاستطاعوا بثباتِهِم وصمودِهِم أنْ يحققوا النصرَ الحاسمَ على أعدائِهِم قَبْلَ

أنْ تَغيبَ شمسُ يوم المعركةِ، وفرَّ ألفونسوا السادِسُ ناجياً بنفسِهِ، على رأسِ كوكبةٍ من فرسانه لا تتجاوزُ المائةَ، هرباً إلى طليطلة، وخلَّفَ وراءهُ في ميدانِ المعركةِ آلاف القتلى والجرحى والأسرى، وقد تَمَّ سَحْقُ الجيوشِ النصرانيةِ المتحالفةِ سحقاً كاملاً، وتمّ بذلك إنْقاذُ الإسلام المُهدَّدِ في اسبانيا، وعمَّتِ الفرحةُ بالنَّصْرِ العَظِيمِ قُلوبَ المسلمين في المغربِ والأندلسِ، ولكنَّ المرابطين لم يُحْسِنوا استغلالَ نتائجِ انتصارِهِمُ الساحِقِ الحاسِمِ، لينهضوا إلى سَحْقِ مملكةِ ألفونسو على الأَثَرِ، ذلك أنَّ بعضَ الظروفِ جعَلَتْ أميرَ المسلمين يوسفَ بنَ تاشفين يتعجَّلُ العودةَ إلى المَغْرِبِ، قَبْلَ أَنْ يضربَ رَأْسَ الأفعى ضَرْبَةً قاضيةً! ولهذا لم يمضِ عامٌ على مَعْركةِ الزَّلاَّقةِ حتى انتعشَتِ القُوَّاتُ النصرانيةُ من جديد، وراحت

تُوالي غَاراتِهَا على المدن الإِسْلاميَّة في الأندلسِ، فلمْ يَجِدِ المرابطون عند ذلك بُدّاً من العَوْدةِ إلى اسبانيا، والقضاءِ على حُكْمِ مُلُوكِ الطَّوائفِ المُتَخَاذلين المتنابذين فيها، ووَضْعِ الأندلسِ الإسلاميةِ تحت السيادةِ المرابطية.

لقد كان الوجودُ الإِسلاميُّ في اسبانيا على وشْكِ الانهيارِ، فجاءتْ مَعْركةُ الزَّلَّاقةِ بِنَصْرِها العظيمِ لانقاذِهِ ودَعْمِهِ، ولمدِّهِ بالقُوَّةِ على الصمودِ، كما جاء انتصارُ المُرَابِطين بَعْدَ ذلك في مَعْركةِ اقليش عام ٥٠١هـ/١١٠٨م على جيوشِ ألفونسو لِيكُونَ ذروةَ ما بلغه سُلْطانُ المرابطين في اسبانيا من قُوَّةٍ، وقد فَقَدَ ألفونسو السادسُ مَلِكُ قشتالة في هذه المعركةِ وَلِيَّ عهدِهِ وولَدَهُ الوحيدَ، فبقي عرشُهُ في طليطلة بلا وَرِيثٍ، ممَّا جعل مملكتَهُ بعده مَسْرَحاً لأحْداثٍ

كثيرةٍ وحروبٍ أهليةٍ مُدمِّرةٍ، كادتْ تَغْمُرُ اسبانيا النصرانِيَّةَ بالخرابِ، خلالَ السنواتِ العشرين التي تلتْ وفاتَهُ عام ٥٠٢هـ/١١٠٩م، ولم يَسْتَطِعْ حفيدُهُ من ابنتِهِ أوراك (ألفونسو ريمونديز) إنْقاذَ الوَضْعِ إلاَّ بعد وفاةِ أمِّهِ المغامرةِ المُسْتَرْجِلَةِ التي كان السلطانُ أعظمَ شهواتِهَا، والتي أغرقت اسبانيا بالدَّسَائسِ والحروبِ الأهليةِ، لكي تستبقي زمامَ الحُكْمِ في يدِهَا، إلى أنْ ماتتْ فجأةً في عام ١١٢٦م، ولم يستطع ابنُهَا اصلاحَ ما أفسدتْ أمُّه إلاَّ بعد بَذْلِ جهودٍ مُضْنِيَةٍ، حتى تمكّن أخيراً، بفضلِ ذكائهِ وتفوُّقِهِ على ملوكِ النصارى الآخرين، من توحيدِ مملكتِهِ، وبَسْطِ سُلْطانِ قشتالة على جميع أراضي اسبانيا النصرانِيَّةِ، وتُوِّجَ قيصراً عليها عام ١١٣٥م، برضى من أمراء النصرانيةِ وملوكِهَا في أرغون ونافارا والبرتغال و برشلونة.

الموحّدون يستولون على الأندلس

ظَلَّ القيصرُ ألفونسو ريمونديز طوالَ سَنَواتِ حُكْمِهِ في حروبٍ دائمةٍ مع المسلمين، فلم يكنْ يَمُرُّ عامٌ عليه دونَ أنْ يغزوَ المسلمون أراضيَ قشتالة، أو يغزوَ النصارى أراضيَ المسلمين، في حروبٍ تدميريَّةٍ، تتَّسِمُ بالعُنْفِ والتخريْبِ والنَّهْبِ، وكانَ القيصرُ الماكرُ يتقلَّبُ بين محالفةِ المُرَابطين على مسلمي الأندلسِ، وبين مُحَالفةِ هؤلاء على المرابطين، لِيزيدَ الأندلسَ الإسْلاميَّةَ فِتَناً، و يَحُوْلَ دونَ وحدةِ الأندلسيين وتماسُكِهم، ومنذ حالتْ ثورةُ الموحدين على المرابطين في المغرب دونَ إرسالِ

الإمداداتِ إلى الأندلسِ، بدأتْ هزائمُ المسلمين تتوالى أمامَ الجيوشِ النَّصْرَانيةِ الزَّاحِفَةِ عليهم، واستردَّ النصارى كلَّ ما كان لهم من تفوُّقٍ على المسلمين قبلَ معركةِ الزَّلاَّقةِ، وأصبح الوجودُ الإسْلاميُّ في اسبانيا مُهَدَّداً بالفناء مَرَّةً أُخْرَى، وراحتِ المدنُ الاسلاميةُ تسقُطُ بين أيدي النصارى المُحاصِرين لها، واحدةً بعد أخرى، ففي أواخر عام ٥٤٢هـ/١١٤٧هـ سقطَتْ مدينةُ ألمرية بين يدي القيصرِ ألفونسو بعد حِصَارٍ بريٍّ وبحريٍّ لها دامَ ثلاثةَ أشهرٍ، وبعد أيَّامٍ من سقوطها سقطت أشبونة (لشبونة) في يدِ أميرِ البرتغال ألفونسو هنريكيز، بَعْدَ حِصَارِها من البرِّ والبحرِ أيضاً، ثُمَّ سقطَتْ طرطوشة في يَدِ الكونت ريموند أميرِ برشلونة، في السَّنةِ نفسِهَا، بعد أنْ عَجَزَ ابنُ مردنيش، أميرُ بلنسية ومُرسية عن الدِّفَاعِ عنها أمامَ مُحَاصِرِيها من البرِّ والبحرِ مدّةَ ستةِ

أشْهرٍ، ثم راح النصارى يُوالون انتِزَاعَ المُدُنِ والحُصُونِ من يدِ ابنِ مردنيش حتى لم يبقَ له غيرُ بلنسية!

كانتْ جيوشُ الموحدين خِلالَ هذه الفترة قد أتمَّتْ فتحَ مُرَّاكش، والقضاء على المرابطين في المغربِ، وكانتْ بعضُ جيوشِ الموحدين قد عَبَرَتْ في أواخرِ عام ٥٤٠هـ/١١٤٦م البحرَ، وانتزَعَتْ حِصْنَ الجزيرةِ من أيدي المرابطين، وجعلتْ منه مُنطَلَقاً لِعمليَّاتِها الحربيةِ في الأندلسِ، وبدأ الأندلسيون ينضمُّونَ إلى الموحدين في مُدُنِ جنوبي الأندلسِ، وعندما انتهى خليفةُ الموحدين عبدُ المؤمنِ ابنُ عليٍّ من توطِيدِ سُلْطانِهِ في أفريقية وجَّهَ إلى الأندلسِ جيشاً ضخماً وصل إلى قُرْطُبَةَ، واستولى عليها عامَ ٥٤٣هـ/١١٤٨م من المرابطين الذين لمْ

ينفعْهُم تحالُفُهُم مع النصارى القشتاليين لِصَدّ زَحْفِ الموحّدين، كما حاصر غرناطةَ، ثم استولى على جيان عام ٥٤٤هـ/١١٤٩م، وفي أوائلِ العامِ التالي حاصر القيصرُ ألفونسو قرطبةَ، ثم رَفَعَ حِصَارَهُ عنها عندما نُمِي إليه أنَّ جيشَ الموحدين بِقِيادَةِ خليفتِهِم عبدِ المؤمِنِ قادِمٌ إلى الأندلسِ، ولكنَّ عبدَ المؤمنِ اكتفى بتوجيه جيشِهِ بقيادةِ الشيخِ أبي حَفْصٍ وولد الخليفة السيد أبي سعيد، لِتصْفِيَةِ حُكْمِ المرابطين في الأندلسِ، وحمايةِ الولاياتِ الإسْلاميَّةِ من غاراتِ النصارى عليها، وبذلك تمكَّنَ الموَحّدون مِنَ الاسْتيلاء على الأندلسِ الإسْلاميةِ، واستعادةِ عددٍ من المُدُنِ بعد أنْ كان النصارى قد استولوا عليها، مثل مدينة المرية التي استردها الموحدون بعد حِصَارٍ طَوِيلٍ استمَرَّ بِضْعَةَ أعْوامٍ، وسقَطَتْ في أيديهم عام ٥٥٢هـ/١١٥٧م وزحفوا على غرناطة واستولوا عليها،

وهرب المرابطون إلى جَزِيرةِ ميورقة، مَلاذِهِمُ الأخيرِ، وانهار حُكْمُهُم في الأندلسِ، ولم يُجْدِهِم نَفْعاً تحالُفُهُم مع القيصرِ ألفونسو الذي بذل كلَّ جهدِهِ لإنْقاذِ غرناطة، ولكنَّ زَحْفَ الموحدين كان كاسِحاً، ومات القيصرُ حُزْناً وغمّاً عندما بلغتْهُ الأنباء بِقَتْلِ الموحدين للحاميةِ النصرانيةِ التي كانتْ تُدَافِعُ عن غرناطة إلى جانبِ المرابطين، وقيل إنَّهُ مات مُتَأَثِّراً بِجرَاحِهِ الكثيرةِ خِلالَ معارِكِهِ مع الموحدين، وبِاسْتِيلاء الموحدين على اشبيلية وقرطبة وألمرية وغرناطة استعادَ الموَحِدُونَ لِلإِسْلامِ تفوقَّهُ في الأندلسِ، وبوفاةِ القيصرِ ألفونسو عادَ الصِّراعُ من جديد بين أمراء النصرانية، من جرَّاء تقسيمِ المملكةِ بين الأولادِ، وبذلك تهيّأ المجالُ أمامَ جُيُوشِ الموّحدين لِتَسْدِيدِ ضَرَبات ساحِقَةٍ إلى المَمَالِكِ النَّصْرَانيةِ التي كانتْ تَحْلُمُ بالقَضَاء العاجِلِ على

الحكمِ الإسلاميِّ والوجودِ العربيِّ في اسبانيا: ففي عام ٥٥٦هـ/١١٦١م عَبَرَ عبدُ المؤمنِ خليفةُ الموحّدين بنفسِهِ إلى الأندلسِ، ونزل بجبلِ طارق، وأنشأ بِهِ حِصْناً عظيماً، وسمَّاهُ (جبلَ الفتحِ) وأقام فيه شهرين يدرُسُ أحْوالَ الأندلسِ، ويَستقبلُ وفودَ قُوَّادِها وأشياخها، ثم أمر بتوجيهِ جُيُوشِهِ إلى غربيِّ الأندلسِ، لِصدِّ غَاراتِ النصارى على الوِلاياتِ الاسلاميةِ، كما أمر بإرسالِ جيشٍ ضَخْمٍ لمحاربةِ ابنِ مردنيش أميرِ بلنسية ومرسية، في شرقيِّ الأندلسِ، وكان يُحَالِفُ بعضَ مُلُوكِ النصرانيةِ، ويَسْتَنْصِرُ بقُوَاهم على صَدِّ هجومِ الموحدين، ويحاولُ طردَهُم من المدنِ الأندلسيةِ التي احتلوها، وقد لقي ابنُ مردنيش وحلفاؤهُ النصارى من مملكتي قشتالة وأرغون هزائم قاصِمَةً، أحْرز الموحدون فيها انتصاراتٍ باهرةً كبَّدوا فيها أعداءهُم أفدحَ الخسائرِ!

وكان عبدُ المؤمنِ خليفةُ الموحدين قد عاد إلى المغرب وأمر بالاسْتعدادِ العسكريِّ لِلجِهَادِ في اسبانيا، فتدفَّقَتْ عليه أمواجُ المتطوعين والمجاهدين والجنودِ من أطْرَافِ مملكتِهِ الواسعةِ، وأمر بإنشاء الأساطلِ والاكْثار من إعْدادِ السِّلاح للجيوشِ الضخمةِ التي تجمَّعَتْ لديه في مدينةِ سلا، من مختلفِ القبائلِ المغربيَّةِ، وخصوصاً من قبيلةِ زناتة، وبدا عند ذاك أنَّ اسبانيا النصرانيةَ ستواجهُ ضَرْبَةً قاضِيَةً، لولا أنْ تُوُفِّيَ عبدُ المؤمنِ فجأة، عام ٥٥٨هـ/١١٦٣م وفَقَدَ الإسلامُ بوفاتِهِ قائداً من أعظمِ قُوَّادِ العصورِ الوسطى، بشهادةِ المؤرخين الغربيين، ورجلَ دولةٍ من الطرازِ الأوَّلِ، استطاعَ بِشَجاعتِهِ وعزيمتِهِ وبُعْدِ نظرِهِ أنْ يقضيَ على دَوْلَةِ المرابطين ويُحقِّقَ وحدةَ الشَّمالِ الأفريقيِّ تحت رايتِهِ،

ويكوِّنَ دولةً قويةً بعد حروبٍ مُظَفَّرَةٍ، في كلتا الجهتينِ الأندلسيةِ والافريقيةِ.

أما اسبانيا النصرانيةُ المتفرقَةُ في خمسِ ممالكَ مُتنافِسَةٍ، (قشتالة وليون ونافارا وأرغون والبرتغال) فقد راحتْ تَتَصارَعُ ويحاربُ بعضُهَا بعضاً بِأشَدَّ ممّا تُحارِبُ المسلمين.

وقد كان من حظِّ الممالكِ النصرانيةِ أن يُسرِّحَ يوسفُ بنُ عبدِ المؤمنِ، الذي بُويعَ خليفةً للموحدين بعد وفاةِ أبيهِ، هَلك الجيوشَ الهَائلَةَ المُتجمِّعَةَ في سلا، ويُشْغَلَ بقضايا المغربِ، وحِياطَةِ مملكتِهِ الواسعةِ، ولكنَّهُ لم يهملْ أمرَ الأندلسِ، وقد كانتْ له عنايةٌ خاصةٌ بها ودرايةٌ شامِلَةٌ بشؤونِهَا، منذ ولاَّهُ أبوه إمْرَتَهَا في حياتِهِ، وقد جاز خلالَ حُكْمِهِ مرتين إلى الأندلس، أولاهما عام ٥٦٧هـ/١١٧٢م في مائةِ

ألف من العربِ والموحدين، واستولى على شرقيِّ الأندلسِ، وأزال دولةَ ابنِ مردنيش، وَاسْتَسْلَمَ أولادُهُ للموحدين؛ وثانيتهما عام ٥٧٩هـ/١١٨٤م في جيشٍ لَجِبٍ من العربِ وقبائلِ زناتة والمصامدة ومغراوة وصنهاجة وأصناف البربر، بالاضَافَةِ إلى جَيْشِ الموحدين النظاميِّ، وفي هذا الجوازِ الثاني لَقِيَ يُوْسُفَ بنَ عبدِ المؤمنِ حَتْفُهُ في ساحَةِ المَعْرَكةِ، على أبوابِ مدينةِ شنترين عام ٥٨٠هـ/١١٨٤م وبُويعَ لأبنِهِ أبي اسحق يعقوب المنصور، وبذلك وصل حَفيدُ عبدِ المُؤمِنِ، أعظمُ ملوكِ الموحدين، إلى الحُكْمِ، وهو بَطَلُ مَعْركةِ الأرْكِ، التي هُزِمَ فيها مَلِكُ قشتالة ألفونسو الثامنُ حفيدُ القيصر ألفونسو السَابع هزيمةً حاسِمَةً، ذكَّرت اسبانيا النصرانيةَ بهزيمتِهَا الكبرى المُماثِلَةِ في معركةِ الزَّلاَّقةِ في عَهْدِ المرابطين، قبل أكثر من مائةِ عامٍ.

السلطان يعقوب المنصور: شخصيته وتكوينه

يُفِيضُ المؤرخون في الثَّناء على سُلْطانِ الموحِّدين يعقوبَ المنصور، ويَعُدُّونَهُ واسطةَ عقدِ ملوكِهم، ويرون أنَّ دولتَهُم بلغَتْ في ظِلِّ حُكْمِهِ أوجَ عزَّتِها وقوتِهَا، ويقولُ بعضُهُم فيه: «كانتْ أيَّامُه زينةً للدهرِ وشرفاً للإسلامِ وأهلِهِ».

والحقُّ أنَّ حفيدَ عبدِ المؤمنِ لم يصلْ إلى الحكْمِ إلاَّ بعد أنْ اكتملَ نضجُهُ، واتسعتْ خبرتُهُ الاداريَّةُ والعسكرِيَّةُ والسياسِيَّةُ، وقد نشأ في رعايةِ أبيهِ، إذ ولاَّهُ في حياتِهِ وزارتَهُ، فبدأ يمارسُ تجربةَ الحُكمِ في

ظِلِّهِ، و يبحثُ في أحوالِ الدولةِ والرَّعيةِ بحثاً شافياً، و يُطالِعُ مقاصِدَ العُمَّالِ والوُلاةِ، فأكسبَتْهُ دراستُهُ لجزئياتِ الأمورِ خِبْرَةً واسعةً جعلَتْ أشياخَ الموحدين يُجمعون على تقديمِهِ ومُبايعتِهِ بعد موتِ أبيهِ، وكان يعقوبُ المنصورُ مع أبيه في المعركةِ التي جُرِحَ فيها، على أبوابِ مدينة شنترين، فلمّا أصِيبَ أبوه، رجع بالناس إلى اشبيلية، وَاسْتكمَلَ البيعةَ له، وقيل إنَّه أخفى نبأ وفاةِ أبيهِ، حتى عاد إلى المغرب، وتمَّتِ البيعةُ له في مرَّاكش، عاصمةِ الدَّوْلةِ الموحِديَّةِ في جمادى الأولى ٥٨٠هـ/أيلول ١١٨٤م، وقد برزتْ مواهبُهُ في قِيادةِ الدولةِ منذ تسلُّمِهِ أمْرَها، فعَمَدَ إلى اكتسابِ محبَّةِ شعبِهِ، بتوزيعِ الأمْوالِ الكثيرةِ على الفُقَراء، وإطلاقِ سراحِ المَسْجُونين، وإسقاطِ بعضِ المكوسِ والضَّرَائبِ، ورَفْعِ المُرتبات، وزِيادَةِ أجورِ

الجُنْدِ، ثم قام بنفسِهِ بجولةٍ في أنحاء المَمْلكةِ الشَّاسِعَةِ، لِيَتَفقَّدَ أحوالَ رعيتِهِ، و يطمئنَ إلى تَنْفِيذِ وُلاتِهِ لأوَامرهِ وتوجيهَاتِهِ.

وَانْصَرفَ المنصورُ سُلْطانُ الموحدين إلى العِنايَةِ بجيشِهِ وتدريبهِ وتسليحِهِ، والسَّهَرِ على تَحْصِينِ حدودِ مملكتِهِ، وحشدِ خيرةِ الجُنْدِ في الحُصُونِ والقلاعِ، حتى أتمَّ تدبيرَ الأمورِ في كلِّ جهةٍ من أطرافِ دولتِهِ العظِيمةِ.

وكانتْ شخصيةُ المنصورِ تتسمُ بالحزمِ والإقدَامِ، والوَرَعِ والتديّن، والاكثارِ من فعلِ الخيرِ، والمؤرخون الغربيون يُشَاركون المؤرخين العربَ في تَعْدَادِ مَزَاياهُ، وتَمْجِيدِ انجازاتِهِ، فابنُ خلكان يقولُ عنه:

«قامَ بالأمرِ أحْسَنَ قيامٍ، وهو الذي أظهَرَ أبَّهةَ مُلكِ الموحدين، ورَفَعَ رايةَ الجِهَادِ، ونَصَبَ ميزانَ

العَدْلِ، وبَسَطَ أحْكامَ الناسِ على حَقِيقةِ الشَّرْعِ ونَظَرَ في أمورِ الدينِ والوَرَعِ والأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المُنكَرِ، وأقَامَ الحُدُوْدَ حتى في أهلِهِ وعشيرتِهِ الأقربين، كما أقامها في سَائر النَّاسِ أجمعين فاستقامتِ الأحوالُ في أيامِهِ، وعظمت الفتوحاتُ» .

والمؤرخُ الألمانيُّ أشباخ يقول عنه:

«نفَّذَ المنصورُ عدَّةَ مشاريع خيريَّةٍ: فأنشأ كثير من المساجدِ والمدارسِ، وأنشأ المستشفياتِ للمرضى ورَصَدَ لها أموالاً لِلنَّفَقَةِ، وفتحَهَا أيضاً لإيواء العجزَة والعُمي، يَؤمُّونها من جميع أنْحاء المملكةِ، وعُنِيَ بتَسْهيلِ المُوَاصَلاتِ والسَّفَرِ، فأنشأ في الطرقِ الرئيسية وطرقِ القوافِلِ أبراجاً، وأحواضاً لخزْنِ الماء، وآباراً للاستسقاء، وفنادق لِنُزولِ المسافرين، كذلك كان المنصورُ صديقاً ونصيراً لِلعُلماء، وقد أنشأ لَهُم

المعاهِدَ.. وأجرى عليهِمُ الأرزاقَ إلخ..» ويَظْهَرُ حَزْمُ المنصورِ في قَضائهِ على الفِتَنِ الداخليةِ التي واجهتْهُ في السنواتِ الأولى من حُكْمِهِ، حتى إنَّه عندما بَلَغَهُ تآمُرُ عمِّهِ السيد أبي الربيع، وأخيه السيد أبي حفص، على الخِلافَةِ، أمَرَ باعتِقَالِهِما ومُحَاكمتِهِما، وقَتْلِهِما دونَ رحمةٍ، لِيَقْطَعَ دابرَ الفِتَنِ، ويَسْتأصلَ شَأفَةَ الطامعين، إلى أنْ تمَّ له تَوْطِيدُ الأمْنِ والاستقرار في مملكتِه المغربيةِ المُمْتدَّةِ من البحرِ المُحيطِ إلى برقة.

ولم يُهْمِلِ المنصورُ شؤونَ الجِهَادِ ضِدَّ النصارى في اسبانيا، وبَعْدَ توطيدِ الاسْتِقرارِ في المغربِ عَبَرَ إلى الأندلسِ بجيشِهِ، وسار إلى شنترين وأشبونة (لشبونة) لكي يَنْتَقِمَ لهزيمةِ والدِهِ ومَقْتَلِهِ، فَشَنَّ الغَاراتِ على غربيِّ الأندلسِ، وعاثَ أثناء سيرِهِ في

المُرُوجِ، وأحْرق القُرَى ونَهَبَ الضِّياعَ، وقَتَلَ السكَّانَ، وبلغ في النكايةِ أبْعدَ الحدودِ، وانصرفَ بِثلاثَةَ عَشَرَ ألفاً من السبيِّ، والغنائمِ العظيمةِ، ورَجَعَ إلى فاس في العام نِفسِهِ (٥٨٥هـ/١١٨٩م).

وعمَّتْ شهرةُ يعقوبَ المنصورِ أرجاء العالمِ الإسلاميِّ، وتناقل المسلمون في كلِّ مكانٍ أنباء انتصاراتِهِ وقوةِ جيشِهِ وأساطيله، ويَتَّخِذُ ابنُ خلدون من طَلَبِ السلطانِ صلاحِ الدينِ الأيوبيِّ الاستنصارَ بأسطولِ الموحدين عام ٥٨٥هـ/١١٨٩م على أساطيلِ الصليبيين المُحَاصِرَةِ لِثُغورِ الشَّامِ، دليلاً على تقدُّمِ قُوّاتِ الموحّدين البحرية وشِدَّةِ عنايتهم بأساطيل الجِهَادِ، وتفوُّقِهِم فيها على قُوَّاتِ الدولِ الإسلاميةِ في مصرَ والشامَ لذلك العهدِ.

تلك هي شخصيةُ سُلطانِ الموحدين يعقوبَ

المنصورِ، بَطَلِ معركةِ الأرك، فلننتقلْ منها إلى تقديم صورةِ خصمِهِ ملكِ قشتالة ألفونسو الثامنِ، قبل أنْ نتابعَ حكايةَ الأحْداثِ التي جرتْ بينهما، والتي أفْضَتْ بهما إلى خَوْضِ تلك المعركةِ الفَاصِلَةِ.

ألفونسو الثامن ملك قشتالة
يتحدى المنصور

عندما تَوَلّى ألفونسو الثامنُ، حفيدُ القيصرِ ألفونسو ريمونديز، عَرْشَ قشتالة بعدَ وفاةِ أبيهِ سانشو الثالثِ، كان فتى قاصِراً، تتنازَعُ الوِصايةَ عليه في قشتالة أسْرَتانِ عَرِيقتانِ في الثَّرَاء والقوةِ، هما آلُ كاسترو وآلُ لارا، وقد جَرَّ تنازعُ هاتينِ الأسرتين الأرستقراطيتين على مملكةِ قشتالة حَرْباً أهلِيَّةً كانتْ وبالاً عليها، فلمّا تغلّبتْ إحدى الأسْرتين (آل لارا) على الأخرى (آل كاسترو) فَرَّ هؤلاء إلى أراضي المسلمين، لِيُدَبِّروا وسائلَ الانتقامِ من أعدائهِم، ويحرِّضُوا الموحّدين على غَزْوِ مملكةِ قشتالة!

وعندما بَلَغَ الفتى القاصِرُ ألفونسو الثامنُ سنَّ الرشدِ، عام ١١٦٩م حاول أنْ يُصْلحَ أمورَ مملكتِهِ، وعقد معاهَدَةَ سلامٍ مع مملكةِ نافارا، وهادن مملكةَ أرغون، لِيَنْصرِفَ إلى قِتَالِ المسلمين، وقد كانتْ مملكةُ قشتالة أكثرَ الممالكِ النصرانيةِ تعرُّضاً لِغزْوِهِم، وقد ازداد الخطرُ الإسْلاميُّ على قشتالة بعد قَضَاء المُوحِّدين على حُكْمِ ابنِ مردنيش في بلنسية ومرسية، واستسلم أولاده لهم كما قدّمنا، فأصبحتْ قُوّاتُ الموحدين تُثْخِنُ في أراضي الدولِ النصرانيةِ، في غارَاتٍ مُسْتمِرَّةٍ، وحروبٍ لا تكادُ تنقطِعُ، في حين أنَّ ملوكَ تلك الدولِ الخمسِ كانوا يتنازعون دائماً على حقِّ كلٍّ منهم في فتحِ ما يلي أراضي مملكتِهِ من أراضي المسلمين، وتفاقَمَ بينهُمُ النِّزَاعُ، حتى كادتْ ممالكهم تغدو هي نفسها عُرضةً لاستيلاء المسلمين

عليها، وجرّهم التنازعُ فيما بينهم على أنْ يتحالَفَ
بعضُهم على بعضٍ، وفي عام ١١٩٠م عقد مَلِكُ
أرغون حلفاً مع ألدِّ أعدائِهِ، ملكِ نافارا، ضِدَّ ملكِ
قشتالة ألفونسو الثامنِ أخْلَصِ حلفائِهِ، وانضمَّ إلى
الحلفِ الثنائيِّ ملكا ليون والبرتغال في العام التالي
١١٩١م، لِيُصْبِحَ الحِلْفُ الرباعيُّ خطراً حقيقياً على
مملكة قشتالة، وهي تواجِهُ تهديدَ الموحدين الدائمَ
لها، وكان ألفونسو الثامنُ ملكُ قشتالة قد عَمَدَ إلى
مُهَادنةِ الموحدين، وعَقَدَ مع يعقوب المنصور صُلْحاً لمدَّةِ
خمسِ سنواتٍ، لِيَتمكَّنَ من مواجهَةِ الممالِكِ
النصرانِيَّةِ الأربعِ المُتَحالِفَةِ عليه، ويُفرِّقَ شمْلَها،
ويبدو أنّه قد تغلَّبَ عليها قبل أن تنقضي سنواتُ
الصُّلْحِ الخمسِ مع المُوحِّدين، فَانْفَرَطَ عقدُ الحلفاء،
وأثارَ الخصام بعد الحلف بينهم منازعاتٍ جديدةً لا
تنتهي! وانتهز ملكُ قشتالة الفُرْصَةَ لِلاغَارَةِ على بلادِ

المسلمين، بجيشٍ كثيفٍ، فنَهَبَ وسبى، وعاثَ في أرضِ المسلمين عَيْثاً فظيعاً، وانتهى الخبرُ إلى سُلْطانِ الموحدين بذلك، وهو في عاصِمَتِهِ بمراكش، في أواخرِ عام ٥٩٠هـ/١١٩٤م، فعَزَمَ على التوجُّهِ إلى الأندلسِ، واتَّجَهَ إلى مدينةِ سلا، وكتب إلى القُوَّادِ وَوُلاةِ الأطْرافِ، لِيُوافوه إليها بالجُيُوْشِ وجُموعِ المُجَاهِدين، واتَّفَقَ أنْ مَرِضَ المنصورُ مرضاً شديداً، وألَحَّتِ العلةُ عليه حتى يئسَ منه أطباؤهُ، فتوقف سيرُ الجيوشِ، وحُمِلَ السلطانُ المريضُ إلى مُراكش، واقتضى الحالُ تَفْرِقَةَ الجيوشِ المتجمِّعَةِ في سلا، واستفاد ملكُ قشتالة من حَرَجِ المَوْقِفِ، وَازْدادَ طمعُهُ في الحصولِ على بعضِ الحُصُونِ المُتَاخِمَةِ لمملكتِهِ، بالتهديدِ والوَعِيدِ، وزيَّنَ له سوء حظِّهِ أنْ يتحدَّى سُلْطانَ المُوحِّدين، يعقوبَ المنصورَ،

ويَسْتَثِيرَهُ لِلْحربِ، بشنٍّ غاراتٍ تدميريةٍ على أراضي المسلمين، تُنْسَفُ فيها الغلاّتُ والكرومُ، وتُقْطَعُ أشجارُ الزيتونِ، وتُخرَّبُ الضِّياعُ والقرى، وتُساقُ الماشيةُ، ويُسبى المستسلمون رجالاً ونساء، ويُذبَحُ المقاتلون المسلّمون منهم ذبحاً...

ولم يكتفِ ألفونسو الثامنُ بما أصابَتْهُ تلك الغاراتُ، من تخريب وتدميرٍ ونهبٍ، وما عاد به قائدُها المطرانُ المتعصِّبُ المتعطِّشُ لدماء المسلمين، مارتن مطران طليطلة، من غنائمَ عظيمةٍ وأسلابٍ وفيرةٍ، فأرَادَ الملكُ القشتاليُّ أنْ يزيدَ في تحدِّيهِ، فكتبَ إلى يعقوبَ المنصورِ كتاباً يدعوه إلى القِتَالِ، هذا نصه:

«من مَلِكِ النصرانيةِ إلى أميرِ الحنيفيَّةِ أمّا بعدُ، فإنْ كنتَ عَجِزْتَ عن الحركةِ إلينا، وتثاقَلْتَ عن

الوصولِ والوفودِ علينا، فوجِّهِ لي المراكبَ والسفنَ أجُوزُ فيها بجيوشي إليك، حتى أقاتلك في أعزِّ البلادِ عليك، فإنْ هزمتني فهدِيَّةٌ جاءتْكَ إلى يدِكَ، فتكون ملكَ الدينينِ، وإنْ كان النصرُ لي كنتُ ملكَ الملّتينِ، والسلام» فلمّا قرأ المنصورُ الكتابَ اشتدَّ غضبُهُ، ومزَّقَ الخِطَابَ، وردَّ على غطرسةِ ملكِ قشتالةِ بكلماتٍ قليلةٍ: (الجوابُ ما ترى لا ما تسمعُ).

وأمر بالاسْتِنفارِ للجهادِ، واستدعاء الجيوشِ من الأمْصَارِ، كما أمر أنْ يُذاعَ فحوى كتابِ ملكِ النصارى على الجندِ والمجاهِدينَ، ليسمعوا تحدِّيَهُ للمسلمين، و يطَّلِعوا على ما فيه مِنِ اسْتِخفافٍ وَاسْتِهانةٍ بهم، لاستشارةِ غَيْرَتِهِم، وتحريضِهِم على الانتقام لِكرامتِهِم!

وهكذا دوَّتْ صيحةُ الجِهَادِ في جميعِ أنحاء

المغربِ، من مدينة سلا حتى برقة، فهيَّجَتِ النفوسَ للحربِ، وتدفقتْ أمواجُ المُتطوِّعين من المُجَاهِدين، من القبائلِ العربيةِ والبربريةِ، وقد أثار تحدي ملكِ قشتالة وغطرستُهُ غَيْرَتَهُمُ الاسلاميةَ، وأهاجَ عزيمتَهْم للانتقام ِالعَاجِلِ القريبِ.

المنصور يدعو إلى الجهاد ويتأهّب له

يذكر بعضُ المؤرخين أنَّ جوابَ المنصورِ على تحدي ألفونسو الثامنِ له هو الآية الكريمة:

«إرجع إليهم فلنأتينّهم بجنودٍ لا قِبَلَ لهم بها، ولنخرجنَّهم منها أذلَّةً وهم صاغرون!» وانْصرَفَ المنصورُ بعد توجيهِ هذا الرَّدِ إلى ملكِ قشتالة، إلى التأهُّبِ لمعركةِ الجِهَادِ الكبرى القادمةِ، ونادى المنادون في جميع أطْرافِ المملكةِ بالدَّعوةِ العامَّةِ إلى الجهادِ، فهُرِعَ الرِّجالُ والشَّبابُ والشُّيوخُ، وسُكانُ الهِضابِ والصَّحارى والشواطىء في جميعِ أنحاء

البلادِ المغربيَّةِ التي يَحْكُمُها الموحِّدون، إلى الانضمام إلى جُموعِ المُجَاهِدين، وتدفقتْ كَتائبُ الجيوشِ النظاميَّةِ على مراكش، وقد عَسْكَرَ السلطانُ في ظاهِرِها، فضُرِبَتِ السُّرادقاتُ الكبيرةُ، ونُصِبَتِ الخيمةُ الحمراء الكبرى، وتقلَّدَ المنصورُ سيفَهُ الكبيرُ، وغصَّتِ الأرضُ بالجموعِ الزَّاخِرةِ من الجُنْدِ والمتطوعين، بأسلحتِهِم وآلاتهم، وأمتعتهم ودوابِّهِم، فلمْ يَجِدِ المنصورُ بُدّاً من الأمر بالتحرّك نحوَ الشَّمالِ، والعَسَاكِرُ لا ينقطعُ وصولُ كتائبهم على مُعَسْكَرِ السُّلطانِ، من سائر الأقْطارِ، فبدأتْ طلائعُ الجيوشِ تُغادرُ أحواز مراكش مع المنصورِ الذي غادر عاصمةَ مُلكِهِ في الثامنَ عَشَر من جمادى الأولى ٥٩١هـ والكتائبُ يتوالى وصولُهَا، وتلحقُ بجيوشِ السلطانِ بمُشاتِهَا وفرسانِهَا، وقد اختارَ المنصورُ أنْ يعبرَ بجيوشِهِ الجرَّارةِ إلى الأندلسِ من ميناء قَصْرِ المجاز، وقد

أشرفَ السلطانُ نفسُهُ على إجازةِ الجيوشِ الواردةِ عليه، لا يفرغُ من إجازةِ طائفةٍ إلاّ وقد لَحِقَتْ بها أخرى على أثرها، فأجاز أولاً قبائلَ العربِ ثم زناتةَ، ثم المصامدةَ، ثم غُمارةَ، ثم المتطوِّعَةَ من قبائل المغْرِبِ، ثم الأغزازَ والرُّماةَ، ثم عبر الموحِّدون ثم العبيدُ، ثم عبرَ السلطانُ في موكبٍ عظيمٍ من أشياخِ الموحِّدين وأهلِ النجدَةِ والزعامَةِ، ومعه عددٌ كبيرٌ من فُقَهاء المغْرِبِ وصلحائه، ونزل الموكبُ السلطانيُّ في ميناء الجزيرةِ الخضراء، في العشرين من رجب ٥٩١هـ، ولم يسترحْ في المدينةِ غيرَ يومٍ واحدٍ، متعجّلاً السيرَ بالجيوشِ الزاحِفَةِ إلى قشتالة، رَغْبَةً في استغلالِ حماسةِ الجُنْدِ وظمأ المجاهدين إلى القتالِ، قبل أنْ تتراخى عزائمُهُم، ويدركَهُمُ التعبُ فتضعف حميَّتُهم، ويُشيرُ المؤرخُ الألمانيُّ أشباخ إلى

عاملٍ ثانٍ كان يدفعُ المنصورَ إلى تعجُّلِ السيرِ نحو خصمِهِ، وهو خشيتُهُ من نفادِ المؤنِ، قبل أنْ يوجِّهَ الضربةَ الساحقَةَ إلى عدوِّهِ، ويستولي على قُراه وضياعه، لِيَنْتفِعَ بما فيها من مِيْرَةٍ يضمُّهَا إلى مؤنِ جيوشِهِ الجرارة الزاحفة التي تُقَدَّرُ بستمائة ألفِ مقاتلٍ.

والحق أنَّ المنصورَ لم يتأهبْ للجِهادِ هذا التأهّبَ العظيمَ، ولم يستعدَّ لملاقاةِ خصمِهِ الذي تحدَّاه هذا الاستعدادَ الكبيرَ، إلاّ وفي نيّتِهِ أنْ يضعَ حدًّا لِتَهْديدِ الممالكِ النصرانية للأندلسِ الاسلامِيَّةِ، بتوجيه ضربةٍ ما حِقَةٍ تسحقُ قوى تلك الممالكِ، وتقضي عليها، وكانتْ خطَّةُ المنصورِ ترمي أولاً إلى اخْتِراقِ قلبِ اسبانيا وافتِتاحِ طليطلة، عاصمةِ قشتالة، ومتى أنجزَ ذلك، وقضى على مملكةِ قشتالة، كبرى الممالكِ

النصرانيَّةِ، أمْكَنَهُ أنْ يوليَّ وجهَهُ شطرَ الممالكِ الأخرى، لِيَقضيَ عليها بسرعةٍ وسهولة!

وهكذا اتجهَتْ جيوشُ الموحِّدين بقيادةِ المنصورِ نحوَ عاصمَةِ قشتالة. ولكنَّ الأخبارَ جاءتْ بأنَّ الملكَ ألفونسو الثامنَ حَشَدَ قواتِهِ بين قرطبةَ وقلعةِ رباح، على مَقْربةٍ من قَلْعَةِ الأرك Alarcos، فاتَّجَهَ المنصورُ بجيوشِهِ إلى ذلك المكانِ، إذ كان يسعى إلى الاشتباكِ بعدوِّهِ، وقبل أنْ يصلَ إليه بنحو مرحلتين (مسيرة يومين) أمر بضرب معسكرِهِ هناك ونُزولِ الجيوشِ وتمركزها، فأُقيمَ المعسكرُ السلطانيُّ، وامتلأَتِ الأرضُ بمضاربِ الجُنْدِ والمُجاهِدين، وكان ذلك يومَ الخميسِ في الثالثِ من شعبان ٥٩١هـ/تموز ١١٩٥م، وأمر المنصورُ بعقد مَجْلِسٍ حربيٍّ فوري، لدراسةِ الخطَطِ التي يجبُ اتباعُها لخوضِ المعركةِ القادمةِ القريبة.

قشتالة تحشد قوات هائلة
للمعركة الفاصلة

لم يكنْ ملكُ قشتالة ألفونسو الثامنُ، عندما تحدى سلطانَ الموحِّدين ودعاه للقِتالِ، بغطرسةٍ وخشونةٍ، ليظنّ أنَّ المنصورَ، وقد أعياهُ المرضُ وألَحَّ عليه الداء بمراكش، سيغضبُ غضبَتَهُ الكبيرةَ، وينهضُ بجيوشِهِ الجرارةِ دونَ تريثٍ، ويقطعُ بها المسافاتِ الطويلةَ، ويعبُر بها البحرَ، ويتحمَّلُ جميعَ تلك الصِّعَابِ، لِيَردَّ على تحدّيه، هذا الردَّ السريعَ العاجِلَ، وعندما عرفَ القشتاليون مقدارَ الجيوشِ التي تَزْحَفُ نحوهم، وجاءتْهُمُ الأخبارُ عن حماسَتِهَا

وحميّتها للقتالِ، وعزمِهَا على سَحْقِ عدوِّها سحقاً كاملاً، وغضبِها لتحدّيه لها واستخفافِهِ بقواها، رأى ألفونسو الثامنْ أنْ يتأهّبَ لملاقاةِ المسلمين بكلّ قواه، وأن يَسْتشيرَ الممالكَ النصرانيةَ الأخرى للوقوفِ إلى جانبِهِ، لِصدّ الخطرِ الإسلاميِّ الداهِمِ الذي يُهدّدُ جميعَ الممالكِ النصرانيّةِ، ولهذا طلب من قريْبَيْهِ ملكي ليونْ ونافارا تناسِيَ الخصوماتِ التي فَرّقَتْ بينهم من قبل، وسألهما أنْ يَضُمّا قواهما إلى قوتِهِ، لِصَدّ الخطرِ المشتركِ عليهم، فوعداه بالعونِ والمساعدةِ، خوفاً من غضبِ شعبيهما، وكانا في قرارةِ نفسَيْهِما، يُضْمِرانِ للملكِ قشتالة حقداً وخوفاً، ويتمنيانِ له الهَزِيمةَ، ويؤكدُ المؤرخُ الألمانيُ أشباخ أنَّ ملكَ نافارا كان يعاون الموحّدين جَهْرَاً على قشتالة، وأنَّ ملكَ ليون كان يعاونهم سِرّاً عليها، وإنْ كان كلٌّ منهما

يتظاهر بصداقتِهِ لألفونسو الثامنِ، و يَعِدهُ بالعَوْنِ، وكان أنْ جمَعَا الجُنْدَ، وتوليا القيادة بنفسَيهمَا، ولكنهما تحرّكا لِلعَوْنِ في كثيرٍ من التردُّدِ والبطء، وشهدا وقائعَ المعركةِ بغيرِ همَّةٍ ولا حماسةٍ، حتى أخذَ ألفونسو الثامنُ يشكُ في صدْقِ نيتِهما، وكان ملكُ قشتالة قد تمكَّنَ من حَشْدِ قواتٍ هائلةٍ، تُقدِّرُها المصادرُ الغربيةُ بأكثرَ من مائة ألفِ مُقَاتلٍ، وترتفعُ المصادرُ العربيةُ بها إلى ثلثمائة ألف، وهي أعدادٌ ضخمةٌ على الحالين، بالنسبةِ لسُكَّانِ مملكةِ قشتالة الصغيرةِ، وإنْ تكنْ قُوّاتٌ إضافيةٌ قد انضمَّتْ إلى فرسانِ قشتالة، مثل فُرْسانِ الداويةِ، وفرسانِ قلعةِ رباح..

و يبدو أنَّ ألفونسو الثامنَ عندما بلغه زَحْفُ المنصورِ بقوَّاتِهِ التي لا تُحصى كثرةً واستعداداً

وحماسة، فكّر في تجنُّبِ الاشتباكِ بها، والامتناعِ بالحصُونِ والقِلاعِ، حتى يُرْغِمَ القواتِ الزاحِفَةَ على الانسحابِ يائسةً، إمّا لِنفادِ المُؤنِ، أو لتفشّي الأمراضِ، أو لحلولِ الشتاء، ولكنّ ملكَ قشتالة، بعد أنْ تحدى المنصورَ ودعاه إلى القِتالِ، بغطْرَسَةٍ وفروسية، لا يستطيع أنْ يختبيء من خصمِهِ وراء الأسوارِ، وقد حشدَتْ قشتالة جيشاً ضخماً حَسَنَ الأهْبةِ، يتلهّفُ أبطالُه إلى قِتالِ أعدائهم، فلم يبقَ أمامَ ألفونسو والقواتِ التي يقودُها إلاّ أنْ يخوضَ بها معركة الحياةَ أو الموتِ، أمامَ جيوشِ الموحِّدين الزاحِفةِ للقتالِ.

ومع ذلك فقد اختار ملكُ قشتالة بنفسِهِ ميدانَ المعركةِ المُقبلَةِ، إلى جَنْبِ حِصْنِ الأركِ كي يمتنع به المنهزمون عند الضرُوْرَةِ، وأمر بأنْ تُضرب أخبيَةُ

جُنْدِهِ على ربوةٍ عاليةٍ مُجاورةٍ للحِصْنِ، ذات مهاوٍ وأحجارٍ كبارٍ، قد ملأتِ السهْلَ والوعْرَ، وأمامَ الربوةِ سهْلٌ عريضٌ مُمتدٌّ، يَصْلحُ مَيْداناً للصدام بين الفريقين.

وهكذا أقام القشتاليون مُعسكَرَهُم على تلك الربوةِ المجاورةِ لحصن الأرك، فنصبوا قرابَةَ مائة وخمسين ألفاً من الخِيامِ، غطوا بها وجهَ الأرضِ، وربطوا إلى أوْتادِهَا آلافاً لا حَصْرَ لها من الخَيْلِ والبِغَالِ والحميرِ، فأمّا الخيلُ فلكي تحملَ فُرسانَهُم، وأمّا البِغالُ والحميرُ فلكي تحملَ أثقالَهُم وأمتعتَهُم، لأنَّ الاسبان لا إبِلَ لهم تحملُ المتاعَ، وحشد القشتاليون داخل حِصْنِ الأرك أنواعَ السِّلاحِ والذخيرةِ للاستعانةِ بها، عند الحاجة؛ وباختيارِ الملكِ القشتالي لميدانِ المعركةِ على هذه الصوْرَةِ،

حقق لقواتِهِ ميْزة كُبْرى على أعدائِهِ، بإنزالها في موقعٍ عالٍ مُشرفٍ ممتنعٍ، تحميه من جانبٍ قلعةُ حِصْنِ الأَرك، وتحميه من الجانبِ الآخرِ بعضُ التلالِ، ولا يمكنُ الوصولُ إليه إلاَّ بواسطة طُرُقٍ ضيقةٍ وعرة!

المنصور يخطط لخوض معركة الأرك

لم يكنِ المنصورُ ليَسْتَبِّد برأيه في التخطيطِ للمعركة الوشيكة، وقد حَرَصَ على اسْتِشَارةِ القَادَةِ ورؤساء الجنْدِ والجماعاتِ، ففاوض كلَّ ذي خِبْرَةٍ في فَنِّ القِتَالِ، ليستفيدَ من تجارب غيرِهِ، وَاخْتصَّ القَادةَ من أهلِ الأندلسِ بمزيدٍ من المشورةِ، وقال لهم:

ــإنَّ جميعَ مَنْ استشرْتُهُ، وإنْ كانوا أولي بأسٍ ومعرفةٍ بالحربِ، لكنَّهم لا يَعْرِفون من قِتالِ الفرنجِ ما تعرفونه أنتم، لِتَمرُّسِكم بهم، وتمرُّسهم بكم، فابسطوا لي رأيَكُم، فإني مُصْغٍ إليكم!

فأحالوه في الرأيِّ على كبيرهم القائدِ الأندلسي أبي عبدِالله ابنِ صناديد، وكان من فحولِ رجَالِ الحربِ رأياً وتجربةً وشجاعةً، فاصطفاه المنصورُ، وعوَّلَ في خطـَّةِ القتالِ وتسيير العمليات الحربية على رأيِهِ وخبرتِهِ، وكان لذلك أثرٌ في تحقِيْقِ النصرِ العظيمِ على النحو الذي سنرى، وفي هَزيمَةِ القشتاليين هَزِيْمَةً يائسةً ساحِقَةً، وقد بقيتِ الخطـَّةُ سِرّاً بين المنصورِ والقائدِ الأندلسيِّ ابنِ صناديد لضمانِ نجاحِهَا، وخلاصتُها أنْ يبقى المنصورُ يومَ المعركةِ مع الموحِّدين والعبيد والحشم متأخراً عن الجيشِ، على مسافةٍ يَخْفَى بها عن أعْيُنِ العدوِّ، ويُقدِّم الشيخَ أبا يحيى بن أبي حفص الهنتاتي، وهو كبيرُ وزرائهِ، على رأسِ الجيشِ الزَّاحِفِ، مع بعضِ الراياتِ والطبولِ، في هيئةِ السُلْطانِ، فيلقى الأعداء

وهم يحسبونه المنصورَ، فإنْ كانتِ الغلبةُ للمسلمين فهو المطلوبُ، وإنْ كانتْ عليهم كان المنصور ردْءاً لهم وعَوْناً، ثم يَسْتأنِفُ القِتَالَ مع الأعداء وقد انفَلَّ حدُّهم ولانت شوكتُهم!

تلك هي الخطَّةُ التي أشار بها ابنُ صناديد على المنصورِ، فاعتمدها، وانصرف إثر ذلك إلى العملِ على تَنْفِيذِها، دونَ تردُّدٍ، ففي يومِ السبت خامس شعبان ٥٩١هـ/تموز ١١٩٥م جلس المنصورُ في قبَّتِهِ الحمراء الكُبْرى المُعَدَّةِ للجِهادِ، ثم دعا بكبيرِ وزرائهِ المُخْلِصِ الأمينِ الشيخِ أبي يحيى، وقدَّمَهُ على الجيش، قائداً عامّاً، وعقد له الرايةَ الكُبرى، فرفرفَتْ على رأسِهِ الراياتُ، وقُرعتْ بين يديه الطبولُ، وأحاطتْ به قبيلتُهُ هنتاتة، ثم عقد المنصورُ

الرّايات للقادةِ الآخرين، وجعلهم تحت إمْرةِ القائدِ العامّ الشيخ أبي يحيى الهنتاتي، مع قبائلِهم، وهم:

١ـ القائد ابنُ صناديد على رأسِ جيشِ الأندلسِ.
٢ـ جرمونُ بنُ رياح على قبائلِ العربِ.
٣ـ منديلُ بنُ عبدِ الرحمنِ المغراوي على قبائلِ مغراوة.
٤ـ محيو ابنُ أبيِّ بكر بن حمامة المريني ـ جد الملوك المرينيين ـ على قبائلِ بني مرين.
٥ـ جابرُ بنُ يوسف العبد الوادي على قبائلِ بني عبد الواد.
٦ـ عبّاسُ بنُ عطية التوجيني: على قبائلِ بني توجين.
٧ـ تلجينُ بنُ علي: على قبائل هسكورة وسائر المصامدة.

٨ـ محمدُ بنُ منفغاد: على قبائل غمارة.

٩ـ الفقيهُ يخلف بن خزر الأوربي: على المتطوّعة، وابنُ خلدون يُؤكِّدُ أنَّ الذي كان على المُتطوِّعةِ يومَئذٍ هو الشيخُ أبو محمدٍ عبدُ الواحدِ ابنُ أبي حفص.

وبعد أنْ أتمَّ المنصورُ عَقْدَ الراياتِ للقَادةِ، وأحاط كلاًّ منهم علماً بالمهمّاتِ التي تنتظِرُهُ، أمر الشيخَ أبا يحيى بالرحيلِ والتقدُّم أمامَهُ إلى جِهَةِ العدوِّ، فتحرَّكَ في قبيلتِهِ هنتاتة، في الطَّليعةِ، وبين يديهِ القائدُ ابنُ صناديد وجيشُ الأندلسِ، وتبِعَتْهُ بقيةُ قطعاتِ الجيشِ، كلُّ قبيلةٍ وعليها قائدُها، وبقي المنصورُ في جيشِ الموحّدين والعبيد، وسار الجيشُ الإسلاميُّ العظيمُ نحو حِصْنِ الأرك، على هذا الترتيبِ، بِقيادةِ الشيخِ أبي يحيى، وأمامَهُ القائدُ ابنُ

صناديد في فُرْسانِ الأندلسِ وحُماتِها، ومن خلفِهِ بقيةُ الجيشِ الكبير؛ وتحرّكَ المنصورُ بجيشِ الموحّدين النظاميِّ والعبيد بعد ذلك، فكان الشيخُ أبو يحيى إذا أقلع بجيشِهِ عن موضعٍ صباحاً، خَلَفَهُ المنصورُ فيه بجيشِهِ مساء، حتى أشرفَ الجيشُ الأولُ على جموعِ القشتاليين وقد أقاموا مُعسكَرَهُم على تِلك الرَّبوةِ العَالِيَةِ، إلى جانبِ حِصْنِ الأرك، فنزل الشيخُ أبو يحيى بجيشِهِ الكبيرِ في السهْلِ المنبسِطِ، ضَحْوةَ يومِ الأربعاء الثامنِ من شعبان ٥٩١هـ/١٨ تموز ١١٩٥م، وانصرَفَ الجيشُ إلى إقَامةِ مضاربِهِ واتّخاذِ مراكزه، في انتظارِ ساعَةِ الاشتباكِ، وقد غدَتْ جِدَّ قريبةٍ!

وكان القشتاليون يُشرفون من مواقِعِهِمُ العاليةِ على وصولِ قطعاتِ الجيشِ الإسْلاميِّ إلى مَيْدَانِ المعركةِ، تحت أعلامِهَا الخضراء ــ وهو لونُ

الموحِّدين ــ وقد بثوا من حولها العيونَ، لِتَنْقُلَ إليهم أنباءها، وتُقَدِّرَ لهم أعدادَها، ومقاديرَ السلاحِ والذخيرةِ، ونوايا القَادَةِ وخططَهُم، و يبدو أنَّ خطةَ المنصورِ للمعركةِ الوشيكةِ ظلَّتْ سِرِّيَةً، فلم يستطعْ جواسيسُ العدوِّ أنْ يكشفوها، ولم يعرفِ القشتاليون أنَّ الجيشَ الإسلاميَّ الذي يَزْحفُ إلى لقائهِمُ قَدِ انشَطَرَ إلى جيشين، الأولُ يضمُّ الجنودَ الخفيفةَ، والرماةَ وجموعَ المتطوعين من المُجاهِدين، والثاني هو القوةُ الاحتياطِيَّةُ المكوَّنَةُ من صَفْوَةِ الجندِ النظاميِّ والحرسِ السُلْطانيِّ، ولم يعرفِ القشتاليون أنَّ قائدَ الجيشِ الأولِ لم يكن المنصورَ سُلْطانَ الموحِّدين، إلاَّ بعد فواتِ الأوان.

وقائع المعركة وسير عملياتها الحربية

عرف المسلمون بُعَيْدَ وصولِهم إلى مَيْدانِ المعركةِ أنَّ اعداءهم القشتاليين قد جمعوا لها جموعاً ضخمةً، لم يجتمعْ لهم مثلُها قبل ذلك اليومِ قطُّ، ولمّا تراءى الجمعانِ، وأبصر المسلمون كثرةَ الجموعِ النصرانيَّةِ، وقدِ انْتشَرتْ مضاربُها التي لا حصرَ لها (مائة وخمسون ألف خيمة) فوقَ تلك الربوةِ المُشْرِفةِ، إلى جانب قَلْعَةِ الأ رك أدركهم الاندهاش وقدّروا قواتِ قشتالة بثلاثمائة ألفِ مُقاتلٍ، وأقلُّ تقديرٍ لها هو مائةٌ وخمسةٌ وعشرون ألفاً، منهم خمسةٌ وعشرون ألفاً من

الفُرْسانِ، والباقون من المُشاةِ، وكانتْ معنوياتُهم عاليةً، وكان شوقُهُم للقتالِ كبيراً، وكان تحدي مليكهم ألفونسو الثامنِ لسلطان الموحّدين المنصورِ يصوِّرُ جانباً من عُنْفُوَانِ أبطالِهِم، وأحلامِ فرسانِهِم بسَحْقِ الجيشِ الاسلاميِّ والقضاء عليه، حتى إنَّ جماعاتٍ من التجار اليهودِ كانتْ قد وصلتْ إلى مُعَسْكرِهم لاشتراء أسرى المسلمين!

وظلَّتْ قطعاتُ الجيشِ الاسلاميِّ الأولِ طَوالَ يومِ الأربعاء تتخذُ مراكزَها، وتتهيَأُ لِلمعركَةِ، وعند المساء وصلَتْ قواتُ الجيشِ الثاني الاحتياطي بقيادةِ المنصورِ، فأخذتْ مواقِعَها خَلْفَ بعضِ التِّلالِ، ولم يَشْعُرِ القشتاليون بوصولِها، ونشط الخُطباء والوعّاظُ في حثِّ المقاتلين على الإخلاصِ، والحضِّ على الصدقِ والثَّباتِ في القِتَالِ، لِنُصْرَةِ دينِ اللهِ،

وإعلاء كلمةِ الله، وكان المنصورُ في ذلك اليوم شُعْلَةً من الشَّجاعَةِ والهمَّةِ ومضاء العزيمةِ والحِكْمَةِ والتواضع، وكان يُقْبِلُ على جماعاتِ المُقاتلين ويُخاطبُهم بصفاء وإخلاص، وخطب في بعضِ تلك الجماعاتِ الحاشِدَةِ، فكان لِصدْقِ لهجته وورَعِهِ أثرٌ كبيرٌ في النَّاسِ، فسالتْ دموعُهُم وهم يسمعون أميرَ المسلمين يُناشدُهُم أنْ يُسامحوه بقوله:

ـ أيُّها النَّاسُ اغفروا لي فيما عسى أنْ يكونَ صدر مني!

فضجَّ الناسُ بالبكاء وصاحوا:

ـ بل يُطْلَبُ الرِّضى والغُفْرَانُ منكم!

ونشطتْ نفوسُ الناسِ، وصفَتْ نياتُهُم، وبلغتْ حماستُهُم للقِتالِ كلَّ مبلغ، وأمضى القائد العامُّ الشيخُ أبو يحيى جانباً من الليلِ في تنظيمِ قُوَّاتِهِ

وتعبئتها وتحديدِ مواقعِها، فكانتِ التعبئةُ تحتَ الغَلَسِ، وحكى بعضُ المؤرخين أنَّ المنصورَ بات تلك الليلةَ عاكفاً بِمُصَلاَّهُ على الركوعِ والسجودِ، يُناشِدُ ربَّهُ نَصْرَ المؤمنين، وأنَّه أغفى اغفاءةً فرأى مَلَكاً ينزلُ من السماء، على فرسٍ أبيضَ، وبيده رايةٌ خضراء، يحملُ إلى المنصورِ البُشْرَى بالنَّصْرِ القريب بحولِ اللهِ، فلمّا استيقظَ المنصورُ قَصَّ رؤياه على قُوّادِ الجُنْدِ، وسألهم أنْ يُذيعوا خَبَرَ هذا الحلمِ بين سائرِ الجندِ، ليزدادَ الناسُ طمأنينةً وبصيرةً وحماسةً للقتالِ، وإقبالاً على مُحَاربةِ العدوِّ.

وعند فجرِ الخميسِ التاسعِ من شعبانَ ٥٩١هـ/١٩ من تموز ١١٩٥م كان القائدُ الاسلاميُّ العامُّ الشيخُ أبو يحيى قد أنهى تعبئةَ جيشِهِ تعبئةَ الحربِ: فجعل عسكر الأندلسِ في المَيْمَنَةِ، بقيادةِ

ابنِ صناديد، وجعل في المَيْسَرَةِ الجندَ العربَ (من أعقاب فاتحي المغرب المسلمين) ومعهم قبائلُ زناتة والمصامدة وسائر القبائل البربرية الأخرى، وجعلَ في المُقدِّمَةِ المتطوِّعَةَ والأغزاز والرماةَ، وبَقِيَ هو في القلبِ، في قبيلتِهِ هنتاتة، وقد خفقتِ الرَّاياتُ الخضراء فوقَ مضربِ قياداتِهِ، فلم يشكَّ القشتاليون بما دبَّر المسلمون، وحسبوا أنَّ السُّلْطانَ المنصورَ هو الذي يتولّى قيادةَ الجيشِ المعبأ لقتالهم.

وعندما أخذَ الناسُ مراكزهم من حومَةِ القتالِ خرجَ القائدُ العربيُّ جرمون بنُ رياحٍ، يمشي بين صفوفِ المسلمين، ويحضُّهم على الثَّباتِ والصَّبْرِ عندَ اللقاء، ويُثيرُ في النفوسِ المؤمنةِ الرَّغْبَةَ في الاستشهادِ في سبيلِ اللهِ.

وكذلك نظَّمَ مَلِكُ قشتالة ألفونسو الثامنُ قُوَّاتِ

جندِهِ، وقد اختارَ لِعَسكرِهِ في ميدانِ المعركةِ موقِعاً مُمتازاً كما قدَّمنا، يُشرفُ على عسكرِ المسلمين، الذين تمركزوا في ذلك البسيطِ الممتدِ، بموضع يُعْرَفُ بفُحصِ الحديدِ، واحتل القشتاليون سَفْحَ التلِ، وعسكروا فوقَ الربوةِ العاليةِ، إلى جانبِ حِصْنِ الأرك، فكان لموقِعِهِمُ العالي المُشْرِفِ ميزةٌ على موقعِ المسلمين في بَدْء القِتالِ.

وكان الملكُ القشتالي قد اختار كتيبَةً عظيمةَ في نحو عشرةِ آلافِ فارسٍ، من خِيْرَةِ مقاتليه، كلُّهم مُدجَّجٌ في الحديد، وكان كلُّ اعتمادِهِ في الحربِ على هذه الكتيبةِ المُخْتارةِ من أشْجَعِ فُرْسانِهِ، وكان أفرادُهَا صباحَ يومِ المعركةِ قد تلقوا صلواتِ القُسسِ عليهم، ورشُّوهم بماء المعموديَّةِ، وباركوهم، ووعظوهم، وقد أقسم الفُرْسانُ على الصَّليبِ أنْ

يثبتوا في قِتالِ المسلمين ولا يتقهقروا عن مواضِعِهم، حتى يهزموا أعداءهُم أو يَهْلِكُوا من دونهم.

وقد احتفظَ ألفونسو الثامنُ بقيادةِ هذه الكتيبةِ المختارةِ لنفسِهِ، وجعل منها قَلْبَ جيشِهِ، وكان أكثرُ مُعوِّلِهِ في المعركةِ على بسالَتِهَا وإقدامِها، وكان أملُهُ أنْ يَصْدمَ بها المسلمين منذُ بداية المعركةِ، فيُضَعْضِعَ بشوكتِها صفوفَهُم، ويَفُلَّ بها حدَّهم، ويردُّ بها هجومَهُم.

وبدأتِ المعركةُ بزحْفِ مُقدِّمةِ الجيشِ الإسلاميِّ، فتقدمَتْ صفوفُها المُهَاجمةُ إلى سفْحِ التلِّ الذي يحتله القشتاليون، واندفعتْ إليه تحاولُ اقتحامَهُ، عندما تقدَّمَتْ كتيبةٌ من الفُرْسانِ القشتاليين، المثقلين بالدروعِ، وانْقَضَّتْ كالسيلِ الجارِفِ المُنْدفعِ من عَلٍ، على صفوفِ المسلمين

المُهاجِمين، ونادى منادي القائدِ العامِّ الشيخِ أبي يحيى:

ــ يا معشرَ المسلمين، أثبتوا في مصافِّكم، وأخْلِصُوا لله ِتعالى نِيّتكم، واذكروا اللهَ عزَّ وجلَّ في قلوبكم!

وبرز عامرٌ الزعيمُ، من أمَراء العربِ، فطاف على صفوفِ المسلمين في مَيْسَرةِ الجيشِ، وحضّ الناسَ على الصبرِ والثباتِ، واندفعتْ حناجِرُ المسلمين بالتكبيرِ، وهم يواجهون حَمْلَةَ الكتيبةِ القشتالية، كالبنيانِ المَرْصُوصِ، حتى اندقّتْ رماحُهُم في صدورِ خيلها، وردُّوها على أعقابها، فتقهقرتْ قليلاً، ثم عاودتِ الحَمْلَةَ في هجومٍ كاسحٍ ثانٍ، فصمد المسلمون له وصدُّوهُ، فانكفأ الفُرْسانُ القشتاليون ليعززوا صفوفَهم بقوى جديدةٍ، و يقوموا

بهجومهمُ الثالثِ، وقد ضاعفُوا جهودَهُم، وانقضُّوا على المسلمين في إصرارٍ على القِتالِ واستهانَةٍ بالموتِ، فاقتحموا صفوفَ الجيشِ الإسلاميِّ، وفرّقوها ومزّقوها، وخلص بعضُهُم إلى قَلْبِ الجيشِ، فوصلوا إلى القائدِ العامِّ الشيخِ أبي يحيى، وهم يظنونه السلطانَ المنصورَ، واستماتوا في القِتالِ حتى تمكنوا من إصَابتِهِ، فسقَطَ رحِمَهُ اللهُ شهيداً، بعد أنْ أحْسَنَ البلاء، وقاتلَ بِمُنْتهى الشجاعَةِ والبسالَةِ، وَاسْتُشْهِدَ معه جماعةٌ من المسلمين من قبيلةِ هنتاته، ومن المُجَاهِدين المتطوعين، ولقيَ آلافٌ من المسلمين مصرعَهُم في ذلك الهجوم القشتالي الثالثِ، وظنَّ الاسبانُ أنَّ النصرَ قد لاحتْ بوادرُهُ لهم، بعد أنْ حطَّموا قلبَ جيشِ الموحّدين، وقتلوا سلطانَهُم بزعمهم، ولكنَّهم دُهِشُوا عندما تلقوا هُجُوْماً كاسِحَاً

مضاداً، لم يُمهلْهُم لحظةً ليتبيّنوا مواقعَهُم و يُدْركوا حقيقةَ ما اعتقدُوْهُ من نَصْرٍ قريبٍ، فَانْقَضَّتْ مَيْمنةُ الجيشِ الإسلاميِّ، وفيها عسكرُ الأندلسِ بقيادةِ أبي عبدِ الله ِبنِ صناديد، على قَلْبِ الجيشِ النصرانيِّ، وشاركهم في الهجوم ِبعضُ بطونٍ من قبيلة زناتة، ونَشِبَتْ بين الفريقين المتقابلين حربٌ حاميةُ الوطيسِ، تحت سُحُبٍ كثيفَةٍ من الغُبارِ، وقد أظْلَمَ الجوُّ، واختلط الرجالُ بالرجال، وانفرد كلُّ مُحاربٍ بمَن يتصدى له، وأرجاء المَيْدانِ تدوِّي بوقعِ حوافرِ الخيل، وقرعِ الطبول وأصواتِ الأبواق، وصلصلةِ السِّلاحِ، وصياحِ الجنْدِ، وأنينِ الجرحى! إنها أهْوالُ معركةٍ حوَّمَ الموتُ فوقَ مَيْدانِها، لِيشهدَ ألواناً من البطولاتِ عند كلٍّ من الفريقين: فالمسلمون والنصارى قاتلوا في ذلك اليوم ِالرهيبِ بِاسْتبْسَالٍ

واستماتةٍ، في معركةٍ بالغةِ الضَّراوَةِ، وانقضَّ المسلمون على أفرادِ الكتيبةِ المُختارةِ من زَهْرةِ فُرْسانِ قشتالة، فطحنوهم طحناً، وأفنوهم فناء مروِّعاً، ولم يلجأ الفرسانُ إلى الفِرَارِ للإبْقاء على أنفسِهم، لأنَّهُم أقسموا عند الصباحِ على الصمودِ والثباتِ حتى الموتِ أو النَّصْرِ، فلمّا أضاعوا النصرَ أمامَ عدوٍّ يفوقهم عدداً، ولا يقل عنهم إيماناً وبسالةً وتضحيةً، حَصَدَهُمُ الموتُ حصداً لا رحمةَ فيه ولا شفقة، وانكسرتْ شوكةُ جيشِ قشتالة بمَصَارِعِ هؤلاء الفُرْسانِ، وبدا لكلِّ عينٍ أنَّ نصرَ المسلمين على الاسبان لن يتأخرَ طويلاً..

حينذاك، أسرعتْ كوكبةٌ من فُرْسانِ العربِ إلى مضربِ السُّلْطانِ المنصورِ، لإعلامِهِ بأنَّ الله تعالى قد فَلَّ شوكةَ العدوِّ، وأنَّ قواتَهُ قد أشرفتْ على الأنهزامِ،

وتلقى المنصورُ النبأ السعيدَ بالشكرِ للهِ والحمدِ له على فضلِهِ، وأمرَ الجيشَ الاحتياطيَّ أنْ يتحرَّكَ لِدُخولِ المعركةِ، فرُفِعَتِ الرَّاياتُ، وخفقتِ البنودُ، وقُرِعَتِ الطبولُ، ورفع المسلمون أصواتَهُم بالتكبيرِ، وزحفوا نحو المعركةِ، وعندما شاهد ألفونسو الثامنُ، من مكان قيادتِهِ العالي المشرف على المَيْدَانِ، وصولَ الكتائبِ الجديدةِ، والرَّاياتُ تخفقُ فوقَ رؤوسِهَا، وسمع زعقاتِ الطبُوْلِ والأبواقِ وأصواتَ المُجَاهِدين بالتكبيرِ، وقد زُلْزِلَتِ الأرضُ بصداها، قال لمَنْ حولَه مُرْتاعاً:

— ما هذا؟

فقيل له:

—هذا المنصورُ قد أقبَلَ بجيشه، وما كان يُقاتلك طَوالَ اليومِ غيرُ طلائعِ جيشه ومقدِّماتُهُ!

عند ذلك ملأ الرعْبُ قلوبَ القشتاليين، وهم يشهدون هجومَ جيشِ المنصورِ على البقيةِ الباقيةِ من فلولهم، وانهارَتْ معنوياتُهُم إلى الحضيضِ، وأدركَهُمُ اليأسُ من تحقيقِ الغلبةِ على عدوِّهم، وتهيأتْ نفوسُهُم للبحثِ عن منفذٍ للنجاةِ من الكارثَةِ التي غدتْ تُحَاصِرُ جموعَهُم!

واجتاحَ جيشُ الموحِّدين بقيادةِ المنصورِ سفوحَ تلك الربوةِ التي أقام فوقها القشتاليون معسكرَهُم، وهم يلاحقون فلولَ المنهزمين، وقد ولّوا الأدبارَ، لا يلوون على شيء، واتجهوا نحو حِصْنِ الأرك، ليلتجئوا إليه ويعتصموا به، واشتدَّ القَتْلُ بالنَّصارى، فتساقطوا بالآلافِ، وتكدَّسَتْ جثثُ القتلى فوقَ السفوحِ، والفُرْسانُ المسلمون يلاحقون المُنهزِمين، يقتلون ويأسرون، أما ألفونسو الثامنُ، فقد أدْرَكَ أنَّه

مُلاقٍ نتيجةَ حُمقِهِ وتحدّيه وغطرسته واستثارته للمنصور، وعَصَرَ الحُزْنُ قلبَهُ وهو يشهدُ تساقط مُعْظَمِ فُرْسانِ قشتالة من حولِهِ، و يؤكدُ المؤرخون الغربيون — ومنهم أشباخ— أنَّ الملكَ القشتاليَّ لم يشأ، بالرغم من مواجهتِهِ لخطرِ الهلاكِ أنْ يُنقذ نفسَهُ بالفِرارِ، وأنْ يحتملَ عارَ الهزيمةِ، لولا أنَّ بقيةً قليلةً من الفرسانِ القشتاليين استطاعتْ أنْ تنجوَ، وأنْ تقتادَ الملِكَ بعيداً عن الميدانِ، فأنقذَتْ بذلك حياتَهُ! إلاَّ أنَّ المؤرخين المغاربة يذكرون أنّ ألفونسو الثامنَ فَرَّ إلى حِصْنِ الأرك، فظنَّ المسلمون أنَّه قد تحصَّنَ به، فحاصروا الحِصْنَ واقتحموه عَنْوَةً وأضرموا النَّارَ في أبوابه، ولكنَّهُم لم يجدُوا الملكَ القشْتاليَّ فيه، لأنَّهُ عند لجوئه إلى الحِصْنِ، دخل إليه من بابٍ، وخرج لتوِّهِ من بابٍ آخر من الناحية الأخرى، ونجا بنفسِهِ مع عَدَدٍ من وجوه قُوَّادِهِ لا يزيدون على الثلاثين!

ويقولُ ابنُ خلدون إنَّ خمسةَ آلافٍ من زُعماء الفرنجِ اعتصموا عند الهزيمَةِ بحصن الأرك، فاستنزلَهُمُ المنصورُ على حُكْمِهِ، وفادى بهم مثلَ عددِهِم من المسلمين.

وهكذا انتهت معركةُ الأركِ بهزيمةٍ ساحقةٍ للنصارى الاسبان، سَقَطَ فيها قُرابةُ مائة ألف من قتلاهم، كما تذكر المصادرُ العربيةُ، وتحاول المصادرُ النصرانيةُ تخفيفَ الكارثةِ بالتقليل من أعدادِ القتلى، فيذكر أشباخ أنهم ثلاثون ألفَ قتيلٍ، وهو عدد لا يتناسب مع عِظَمِ الكارثَةِ التي أصابَتِ القشتاليين، ولا يُمثِّلُ حقيقةَ الهزيمةِ الكُبْرى التي لحقتهم، وإنْ يكُنْ أشباخ يعترِفُ بأنَّ زهرةَ الفروسيةِ الاسبانيةِ قد سُحِقَتْ في معركةِ الأرك الرهيبة.

إنَّ تقديرَ المصادِر العربيةِ لعددِ القتلى من

نصارى الاسبان في معركةَ الأرك أجْدَرُ بالاعتمادِ والتصديقِ، وهذه المصادرُ نفسُها تُقرِّرُ أنَّ شهداء المسلمين في تلك المعركةِ لم يقلوا عن العشرين ألفاً، وقد سقط أكثرُهُم في بدايةِ المعركةِ، عند تصديهم لردِّ الهجماتِ القشتالية الأولى على الجيشِ الإسلاميِّ الأولِ، فإذا كان عَدَدُ قتلى المسلمين وهم المُنتصِرون في المعركةِ عشرين ألفاً فإنَّ عددَ القتلى من الاسبان ينبغي أنْ يكونَ عدَّةَ أضعافٍ، وهم المنهزمون المُنْسحِقُون الذين حَصَرَتْهُم سيوفُ الموحِّدين، وطحنتْ فرسانَهُم طحناً، ويذكرُ المؤرخون أنَّ من عادةِ الموحِّدين أنهم يُؤْثِرون قَتْلَ مَنْ يحاربونَهُم من المشركين على أسْرِهِم؛ وهذا هو سِرُّ كثرةِ قتلى النصارى في معركةِ الأرك.

وذَكَرَ مصدرٌ عربيٌّ أنَّ عددَ أسارى معركةِ

الأرك من القشتاليين أربعةٌ وعشرون ألفاً، وأنَّ المنصورَ مَنَّ عليهم جميعاً وأطلقهم، فشقَّ ذلك على جميع الموحّدين، وعَزَّ على سائر المسلمين ما فعل، وعَدُّوا عملَهُ سقطةً من سقطاتٍ الملوكِ التي لا تُغْفَرُ!

أمّا الغنائمُ التي غنمها المسلمون في ذلك اليومِ فكانتْ شيئاً يَفُوقُ الحَصْرَ، من الأموالِ والذخائر والأسلحةِ والأمتعةِ والخيلِ والبغالِ والحميرِ: فمن الخيامِ غنم المسلمون ١٤٣ ألفاً ومن الخيلِ ٤٦ ألفاً (وقيل: ٨٠ ألفاً) ومن الحمير ٤٠٠ ألف، ومن النِبَال ١٠٠ ألف، وسببُ كَثْرَةِ البغالِ والحميرِ أنَّ الاسبان كانوا يعتمدون في حَمْلِ أثقالِهم وأمتعتهم عليها، كما يعتمدُ العربُ والمغاربةُ على الابِلِ في ذلك.

وكان منادي السلطانِ أذاعَ في المسلمين أنَّ من

غنم شيئاً فهو له، باستثناء السلاحِ، وقد أحْصِيَ ما حُمِلَ من الأسلحةِ إلى خزانةِ المنصورِ فكان يزيدُ على سبعين ألفاً من الدروعِ! وقد بِيْعَ الأسيرُ القشتاليُّ بَعْدَ المعركَةِ بِدِرْهَمٍ، وبيعَ السيفُ بنصفِ درهمٍ، والفرسُ بخمسةِ دراهمَ، والحمارُ بدرهمٍ، وامتلأتْ أيدي الناسِ من كثرةِ الغنائم والأموالِ والأمتعةِ، وقد أمر المنصورُ بتوزيعها بمُقْتَضى الشَّرْعِ، وأنفقَ من حصَّةِ الخمسَ الخاصةَ بالسُّلْطانِ على بناء مَسْجِدٍ كبيرٍ في اشبيلية، اشتهرت مَنَارتُهُ بارتفاعِهَا البالغ (وقد حُوِّلتِ المنارةُ إلى برجٍ للناقوس، بعد خروجِ المسلمين من اسبانيا، وهي ما تزالُ باقيةً إلى اليومِ وتُعرفُ ببُرْجِ الجيرالدا، وتُعدُّ آيةً من آياتِ الفنِّ العربيِّ الإسلاميِّ الخالدِ في الأندلسِ).

وقدِ اقْتَحم المنصورُ عقبَ الموقعَةِ الكبيرةِ حِصْنَ

الأرك واستولى على ما فيه من الذخائر والأسلحةِ، كما اقتحم قَلْعَةَ رباح المنيعة الأخرى، وكان يُريدُ أنْ يمعن في بلادِ الفرنجِ وحُصُونِهم فتحاً وسبياً وأسْراً، لولا أنَّ الغنائمَ الكثيرةَ كانتْ تُثقِلُ حركةَ الجيشِ، فآثر أنْ يرتدَّ إلى اشبيلية للاستقرارِ بها إلى حين.

أما الملِكُ القشتاليُّ المهزومُ المقهورُ، فقد وصل إلى عاصمةِ ملكِهِ طليطلة، في أسوأ حالٍ من الحُزْنِ والإِذْلالِ والألمِ لأشنع هزيمةٍ وأكبر كارثةٍ حلَّتْ بمملكةِ قشتالة، ومما زاد في ألمِهِ وأحزانِهِ أنَّ تلك الهزيمة لم تلحقْ به دون معاونةٍ من بعضِ النَّصارى الفارين من قشتالة، والذين كانوا يرافقون سُلْطانَ الموحِّدين، ويمدُونَهُ بالنُّصْحِ، وكان في مُقدَّمَةِ هؤلاء الكونت بيدرو فونانديز دي كاسترو، المُبْعدُ من قشتالة، الممتلىء حقداً على ألفونسو الثامنِ وحُكْمِهِ.

وفي مقام المنصورِ في أشبيلية أمر أنْ تُذاعَ أخبارُ النصرِ العظيمِ الذي حقَّقَهُ الموحدون في معركةِ الأرك الحاسمةِ، من منابرِ المساجدِ الجامِعَةِ في أنحاء مملكتِهِ الشاسعةِ، وأنْ تُرْسَلَ الكتبُ بأنباء النصرِ الإسلاميِّ إلى بقيةِ أنحاء العالمِ الاسلاميِّ، لتعمَّ الفرحةُ قلوبَ المسلمين في كلِّ مكانٍ، وقد كان المنصورُ على صلاتٍ وثيقةٍ وطيبة مع معظم ملوكِ المسلمين في عَصْرِهِ.

أصداء المعركة الحاسمة وآثارها

انتهتِ المعركةُ بهزيمَةِ القشتاليين على النحْوِ الذي رأيناه، وتمَّ سَحْقُ قواتِهِم سَحْقاً كامِلاً، واستولى الموحدون على معسكرهم بجميع ما فيه من المَتَاعِ والذَّخائرِ والأمْوالِ، وهرب الملكُ ألفونسو الثامنُ من المَوْتِ مع عددٍ قليلٍ من قُوَّادِهِ، وعادُوا أذِلَّةً مقهورين إلى طليطلة، وقد عمَّتِ الكارثةُ جموعَ النصارى بالأحْزانِ، وتملّكُهم الرعبُ من أنْ يوالي المنصورُ الزَّحْفَ على المدنِ النصرانيةِ وقُرَاها، بجيشِهِ الظافرِ، لِيعيثَ فيها نهْباً وخراباً، وقتْلاً وسبْياً، بعد أنْ حطمتْ معركةُ الأركِ قدرةَ مملكةِ قشتالة على الدّفاع، وسَحَقَ الموحّدون جيشَها.

ويروي المؤرخون أنَّ الملكَ المقهورَ ألفونسو الثامنَ عندما رَجَعَ إلى عاصمتِهِ في أسوأ حالٍ، حلق لحيتَهُ ورأسَهُ، ونكَّسَ صليبَهُ، وركب حماراً، وأقسم ألاّ يركبَ فرساً ولا بغلاً، ولا ينامَ على فراشٍ، ولا يقربَ النِّساء، حتى تُنصرَ النصرانيَّةُ، وراح يجمعُ الجموعَ العظيمةَ، للانتقام لهزيمتِهِ المروِّعةِ، وقد حرَّمَ على نفسِهِ كلَّ مُتْعةٍ!

أمّا المنصورُ فقد أذاعَ أنباء النصرِ الحاسمِ الذي أحرزته جيوشُهُ على نصارى الاسبان، فعمَّتِ الفرحةُ أرجاء مملكةِ الموَحدين، في الأندلسِ وفي الشَّمالِ الأفريقيِّ، ووصلتْ أنباء النَّصْرِ إلى بقيةِ العالم الإسلامي، فارتفعت شهرةُ الموحّدين الحربيةُ في كلِّ مكان فيه، وبلغ سلطانُ دولتهم أوجَ العظمَةِ والقوةِ بعد مَعْركةِ الأرك، وأصبحَتِ الممالكُ النصرانيةُ في

اسبانيا تخطبُ ودَّ المنصورِ، وتسعى لِعَقْدِ المُحَالفاتِ معه، وبدأتْ مملكتا ليون ونافارا القيام بِمُفاوَضاتٍ سِرِّيَةٍ لِعَقْدِ تحالُف مع الموحِّدين، وانتهزتا فُرْصَةَ انسحاقِ قشتالة أمامَ الموحدين، فشهرتا الحربَ عليها، وكان ملكُ ليون يَعْتَقِدُ أنَّه يستطيعُ بمعاونةِ المسلمين له أنْ يقومَ بِفُتوحاتٍ في مملكةِ قشتالة نفسِها، وكذلك استردَّ المسلمون بعد معركةِ الأركِ تفوُّقَهُم على جيرانهم النصارى في اسبانيا، وغرقت اسبانيا النصرانيَّةُ من جديدٍ في الحروبِ الأهليَّةِ، فأصابها الوَهَنُ، وانصرفتْ إلى ترميمِ بنائها الداخليِّ، وعكفتْ مملكةُ قشتالة على إعادة تكوين جيشِهَا، للصمودِ في وجْهِ أطماعِ شقيقتيها مملكتي ليون ونافارا، والعمل على الانتقام من المسلمين لهزيمتها في الأرك، بُغيةَ استعادةِ مركزِها وهيبتها، باعتبارها كُبْرى دُوَلِ النصرانيَّةِ الخمس في اسبانيا.

وقد رأى المنصورُ، وهو مُقيمٌ في اشبيلية، يُدبّرُ أمورَ دولتِهِ في الأندلس، أنْ ينتهزَ فُرْصَةَ الظروفِ القاسِيَةِ التي تُرْهِقُ مملكةِ قشتالة، فيوالي غزوَ أراضيها، و يقضي على البقيةِ الباقِيَةِ من قُوّاتِها، فقام في أوائل عام ٥٩٢هـ/١١٩٦م بحملةٍ على الأراضي النصرانِيَّةِ، فَاخْتَرَقَ ولايةِ استراما دوره، وعبر مياهَ نَهْرِ الوادي الكبير، في اتجاه نهر التاجه، واستولى على عَدَدٍ من الحُصُونِ والقِلاعِ، إلى أن ظَهَرَ بجيوشِهِ أمامَ أبوابِ طليطلة، عاصمةِ قشتالة، وكان ألفونسو الثامنُ قَدِ احْتَمَى مع جيشِهِ الصغيرِ وراء أسوارِ عاصمتِهِ المنيعةِ، ولم يجرؤ أنْ يبرزَ للقاء المنصُورِ في المَيْدَانِ الفسيحِ المكشوف، نظراً لانهيارِ معنويّاتِ جندِهِ، وانكسارِ نفوسِهِم، وقلّةِ عددِهِم، ولكنَّ الملكَ القشتاليَّ كان مُصمّماً على الدفاعِ عن عاصمتِهِ حتى

النفسِ الأخيرِ، فاستعدَّ لمواجهةِ الحِصَارِ الخانِقِ الذي أقامه المنصورُ حَوْلَ طليطلة، وعندما أيْقَنَ سُلْطانُ الموحِّدين أنَّ من العبثِ أنْ يستمِرَّ في حِصَارِ العاصمةِ القشتالية، وأنَّ جميعَ مُحَاولاتِ جيشِهِ لاقْتحامِ موقعِهَا المنيعِ لم تُسْفِرْ عن النجاح، أمر جُنْدَهُ بَعْدَ عشْرة أيامٍ من الحصارِ الفاشل بالرحيلِ، وارتدَّ عن أسوارِ طليطلة إلى مدينةِ طلمنكة، فاقتحمها عنوةً، وقتل جنودَها، وسبى أهلَها، وأحرقَ المدينة وهَدَمَ حُصُونَها، وتركها — كما يقولُ المؤرخون — قاعاً صفصفاً!

لقد أراد المنصورُ أنْ يوجِّهَ ضَرَبَات مُميتَةٍ إلى جملةِ القوى النصرانية التي ما فتئتْ تُهدِّدُ الوجودَ الاسلاميَّ في الأندلس، وتُباغِتُ المدنَ والحصونَ الاسلاميةَ بغاراتِها، وتفعلُ بسكانِها المسلمين

الأفاعيلَ، لِتبثَّ الخوفَ والذُّعْرَ في نفوسِهم، وتضطرهم إلى مُغَادرةِ أراضيهم، وتسليم قِلاعِهِم وقُراهم! هي سياسةٌ مَرْسومةٌ لِتشرِيْدِ المسلمين الأندلسيين، وطردِهِم من بلادِهِم، بعد خَمْسةِ قرونٍ من إقامَتِهم فيها، وإعمارِهِم لأرضها، وجَعْلِ اليبابَ فيها جنَّاتٍ وارفةَ الظّلالِ! وهكذا يمكننا تفسيرُ الحملاتِ التخريبيةِ الضارِيَةِ التي قام بها المنصُورُ، في الأراضي النَّصْرانيةِ، فهدَّمَ عامِرَهَا، ودمَّرَ مرافِقَهَا، ودكَّ حصونَ كُلِّ قلعةٍ وأسوارَ كلِّ مدينةٍ قَدرَ على أخْذِها، وقَتَلَ كُلَّ مُحَارِبٍ فيها، ويقولُ المؤرخُ الألمانيُّ أشباخ:

«وَصَلَ يعقوب المنصورُ إلى مَقْربةٍ من ضِفَافِ دويره، الذي لم يقترِبْ من ضفافِهِ منذ مُدّةٍ طويلةٍ أيُّ جيشٍ اسلاميٍّ، وعاث المؤحّدون عند عودهم في

الأراضي النصرانية أيّما عَيْث، فلم تطأ أقدامُهم مكاناً فيها إلا تركوه أطلالاً دارسة!».

عند ذلك لم تَجِدِ الممالكُ النصرانيةُ بُدّاً من طلبِ الصُّلْحِ، ولم يجدْ ملكُ قشتالة ألفونسو الثامنُ بداً من الركوع، وقد بلغه خبرُ الحِلْفِ الذي عقدَهُ ملكا نافارا وليون مع الموحّدين، فأرسل إلى المنصورِ رُسُله يطلبون مُهَادنتَهُ، و يُؤَكِّدون له حِرْصَ ألفونسو الثامنِ على السّلام!

وتلقَّى المنصورُ رُسُلَ الملكِ القشتاليِّ المهزومِ الذي لقيَ الجزاء الأوّفى على غطرستِهِ السابقةِ وتحدّيه لِسُلْطانِ الموحّدين، ودعوتِهِ إيّاهُ إلى الحَرْبِ باستثارةٍ وحُمقٍ ورُعونةٍ، وكان المنصورُ من أعظمِ الملوكِ وأرفعِهِم خِلالاً، فلم يشأ أنْ يزيدَ في إذلالِ خَصْمِهِ، وأجاب إلى ما يطلب من هدنةٍ، وتمَّ عقدُها في

أواخر عام ٥٩٢هـ/١١٩٦م، وفي بعضِ المصادرِ العربيةِ (نفح الطيب للمقري) أنَّ المنصورَ لما ضيَّقَ الحِصارَ على طليطلة خرجَتْ إليه والِدَةُ ألفونسو الثامنِ وبناتُه ونساؤهُ، وبكيْنَ بين يديه، وسألْنَهُ إبقاء البلدِ عليهن، فرَقَّ لهن ومَنَّ عليهن به، ووهب لهن الجليلَ من المالِ، وردَّهن مُكَّرمات عزيزاتٍ، وعفا بعد القُدرةِ، وهكذا كانتْ أخلاقُ المنصورِ وخِلالُهُ، وأريحيّته، ولو أراد الانتقامَ من الملِكِ القشتاليِّ الذي تحدَّاهُ بفظاظةٍ ورُعونةٍ لَرَفَضَ أنْ يُهادنَهُ بعد أنْ تهيّأ له السبيلُ بعد هزيمتِهِ الساحِقَةِ إلى القضاء عليه قضاء مُبرماً!

ومن الانصاف للحقيقةِ أيضاً أنْ نُشيرَ إلى أنَّ المنصورَ كان يُرحِّبُ بقصد المُهادنةِ مع قشتالة، لأسبابٍ أخرى كانتْ تضطره إلى مُغادرةِ اسبانيا

والعودةِ إلى المغْرِب، أهمها ما بلغه من ثورةِ علي بن أسحق الميورقي ومحاولتِهِ الاستيلاء على بجاية، ونشرِ الفِتْنَةِ في مملكةِ الموحّدين، وعليٌّ بنُ اسحق هو سليلُ القائدِ المرابطي الشهيرِ ابنِ غانية، ولهذا وافق المنصورُ على مهادنةِ الاسبان لمدَّةِ خمسِ سنواتٍ، وعبرَ البحرَ إلى المغْرِبِ، في أواخر عام ٥٩٣هـ أو في أوائل ٥٩٤هـ، عائداً إلى عاصمتِهِ مُراكش، حيثُ تمكَّنَ من القضاء على الفِتْنَةِ، وإعادةِ الأمْنِ والاستقرارِ إلى مملكتِهِ، دونَ مشقةٍ كبيرةٍ.

ويُعدُّ بطلُ معركةِ الأرك من أعظمِ ملوكِ المغْرِبِ مَجْدَاً وأكثرهم بناء وعُمْراناً، وقد أتاحت له الأموالُ الجليلةُ التي غَنِمَها بعد المعركةِ أنْ يشيدَ آثاراً خالِدَةً، لا تزال إلى اليوم ماثِلةً للعيان، تشهدُ لبانيها المجاهدِ العظيمِ بالمَجْدِ وخُلودِ الذكرِ على الأيام.

خاتمة: نظرة تحليلية

بعد عرضنا لِوَقائع معركةِ الأرك الحاسمةِ، وما انطوتْ عليه من مشاهدِ البُطُولاتِ والأمجاد، وبعد تقصّيْنَا للأصْداء التي خلّفتْها المعركةُ لدى كُلٍّ من الفريقين المتحاربين فيها، نودُّ أنْ نلقيَ نظرة تحليليةً عاجِلَةً على عواملِ النصرِ الاسلاميِّ في هذه المعركةِ الفاصِلَةِ، لِنَسْتخلصَ منها درساً نافِعاً لحاضِرِ أمتنا العربيةِ والاسلامِيَّةِ، ونزداد إيماناً بأنَّ طريقَ كلِّ أمَّةٍ إلى الحياةِ والنصرِ والكرامةِ يبدأ من منطلقٍ واحدٍ: هو وحدتُها الوطنيَّةُ التي تجمعُ شَمْلَها وتحميها من التفرُّقِ والتبدُّدِ، وتُوجِّهُ صفوفها نحو هَدَفٍ موحَّدٍ،

فَتَسِيرُ جميعُ طاقاتِ الأمَّةِ متشابكةً نحْوَهُ، كالبنيانِ المرصوصِ يشدُّ بعضُه بعضاً..

إن أولَ عاملٍ من عواملِ نصرِ المسلمين المغاربة في معركةِ الأرك تُقَدِّمُهُ الوحدةُ الوطنيةُ الوثيقةُ التي جمعتْ أقطارَ الشَّمالِ الأفريقيِّ في ظِلِّ دولةِ الموحِّدين العظيمة، إذ كانت دولتُهُم قد تمكنتْ من توحيدِ تلك الأقطارِ (من مدينة سلا على الأطلسي إلى مدينة برقة في ليبيا اليوم) ومجموعُها يؤلفُ اليومَ ما يُدعى بالمغْرِبِ العربيِّ الكبيرِ، وبتوحيدِ تلك الأقطارِ كلِّها تحت رايَةِ الموحِّدين تمكَّنتْ دولتُهُم من تجنيدِ تلك الجيوشِ الجرارة التي استطاعتْ بها سَحْقَ الممالكِ النصرانِيَّةِ في اسبانيا وهزيمتها هزيمةً ماحِقَةً، وقد شهدنا في معركة الأرك أكثر من نصفِ مليون مُحَارِبٍ يعبرون البحرَ، تلبيةً لنداء المنصورِ،

لِلمُشاركةِ في الجِهادِ، كما رأينا انضِمامَ الجيشِ الأندلسي إلى الجيوشِ المغربية الزَّاحِفَةِ، في وحدةٍ جامعةٍ، وراء خليفةِ الموحّدين المنصورِ، لِخَوْضِ معركةِ النصرِ، وقد تجلّتِ الوحدةُ بأوثقِ روابِطِهَا بين جموع المسلمين الحاشدة، من عربٍ وبربرٍ، ومغاربةٍ وأندلسيين، وجنودٍ نظاميين ومُجاهِدين متطوّعين من شتّى القبائلِ العربيةِ والبربريةِ، وقَاتَلَ الجميعُ تحت إمْرَةِ المنصورِ وكأنهم يَدٌ واحِدَةٌ، بقلوبٍ عامِرَةٍ بالايمانِ، ونفوسٍ ظامِئةٍ إلى الشهادةِ، إلى أنْ تمكّنُوا من هزيمةِ القشتاليين ودحرِهِم، بعد ثلاثِ مُحَاولاتٍ هُجُوميَّةٍ كاسِحَةٍ، رموا خلالها بأشجعِ فرسانِهِم وأعظمِ محاربيهم، ليصدموا بهم جيشَ المسلمين صدمةً قاضيةً منذ الساعاتِ الأولى للمعركةِ، بغيةَ تحقيقِ نصرٍ خاطِفٍ، يحطّمون به معنوياتِ الجيشِ

الاسلامي، ولكنَّ المسلمين ثبتوا لِلهُجوم تِلْوَ الهجوم، ولم يُبالوا بكثرة مَنِ اسْتُشْهِدَ منهم خِلالَ ذلك، وتحمَّلتْ قبيلةُ هنتاتة أعنفَ الهجوم عليها، وهي تُحيط بزعيمها الوزيرِ أبي يحيى، القائدِ العامِّ للجيشِ الأولِ، والراياتُ الخضرُ ترفرف فوقه، وقد حسبَه القشتاليون سلطانَ الموحدين، فاستماتوا في الوصولِ إليه، ودفعَ الوزيرُ الأمينُ المخلصُ حياتَهُ ثمناً لتضحيته الكبيرة، وكان من أكبرِ أبطالِ معركةِ الأرك وشهدائها الأبرار المؤمنين، وسقط إلى جانبه عَدَدٌ كبيرٌ من أبطالِ قبيلتِهِ هنتاتة، بعد أنْ صمدوا للدِّفاعِ عنه باستبسالٍ مَشْهودٍ.

والعاملُ الثاني في نصرِ المسلمين في معركةِ الأرك نجدُهُ في عنايةِ المنصور بتقديمِ المحاربين الأندلسيين، والاهتمامِ بهم، والحرصِ على إشراكِهِم

في جميع مَرَاحلِ المعركةِ، والاستِفَادةِ من خبراتِهِمُ الكبيرةِ في حروبِهِمُ المتواليةِ للنصارى الاسبان، وقد صارحَهُمُ المنصورُ بأنَّه حريصٌ على استشارتهم والانتفاعِ بتجاربهم وتقديم رأيهم على آراء غيرهم مِمَّنْ لم تكنْ لهم تجاربُ حربيَّةٌ مع نصارى الاسبان، في التخطيطِ للمعركةِ وعملياتها، وقد سُرَّ الأندلسيون لاهتمام ِسُلطانِ الموحِّدين بهم، وازدادوا فرحاً حين عَقَدَ المنصورُ للقائدِ الذي اختاروه منهم على جيشهم، لقيادتهم، فأخلصوا في المعركةِ كُلَّ إخلاصٍ، وكان لقائدهم أبي عبدالله بن صناديد دورٌ كبيرٌ في تحقيقِ النَّصْرِ، إذ قدَّمَ للمنصورِ عُصَارَةَ خبرتِهِ الحربيةِ مع الاسبان، وأشار عليه بالخطَّةِ الكفيلةِ بدحرِهِم، وقاتلَ مع أبطالِ الجيشِ الأندلسي أصدَقَ قِتالٍ، بعد استشهادِ القائدِ العامِّ الوزيرِ أبي يحيى الهنتاتي، حتى تمكن من صَدِّ الهجوم ِالقشتاليِّ، وسَحْقِ الصفوفِ

المتقدِّمَةِ من فرسانِ قشتالة، بعد أنْ ظنوا أنهم قتلوا السلطانَ المنصورَ، وأنهم قد أصبحوا قابَ قوسَينِ من النَّصْرِ على المسلمين! لقد رأى الأندلسيون اهتمامَ المنصورِ بهم، فبذلوا في حَوْمَةِ القتالِ كُلَّ جهدِهِم، وهذا أمرٌ لم يكنِ المرابطون ينتبهون إليه، حين كانوا يُهْمِلُوْنَ تقديمَ الأندلسيين في الحربِ مع النصارى الاسبان، فيخسرون بذلك مشاركتهم الكبيرة في المعارك، كما كان إهمالُهُم يُثيرُ تذمُّرَ الأندلسيين في أوّلِ الأمرِ إلى أنْ أصبحوا يغضبون ويثورون ويُشاركون في الفِتَنِ، لِلخلاصِ من المرابطين والخروج عن حُكمِهِم وسلطانِهِم في آخرِ الأمْرِ.

والعاملُ الثالثُ في النصرِ الاسلامي في معركةِ الأرك التخطيطُ لها بِمَهارةٍ وذكاء وموهبةٍ حربية فَذَّةٍ، وقد رأينا خطـَّةَ القِتالِ يرسُمها المنصورُ بإرشادِ

القائدِ الأندلسي ابنِ صناديد، وهي تقومُ على فهمٍ واعٍ لطريقة النصارى الاسبان في القتال، لمواجهتهم بطريقةٍ مُضادةٍ تشلُّ خطتَهُم وتُفْسِدُ تدبيرَهُم، ولمَّا كان الاسبان يَعْمَدُون إلى اختيارِ كتيبةٍ ضَخْمَةٍ من أشجعِ فُرْسانِهِم، يُلقون بها في بدايةِ المعركةِ، ليصدموا بها عدوَّهُم صدمةً قاضيةً، تُكبِّدُهُ خسائرَ كبيرةً، تنهارُ أمامَها معنوياتُهُ، و يبلغُ معها يأسُهُ من النصرِ كلَّ مبلغٍ، و يتهيأ في غمرةِ اليأسِ لالتماس منافذِ النَّجاةِ بالفِرارِ، فقد خطَّطَ المنصورُ للمعركةِ بالاتفاقِ مع القائدِ ابنِ صناديد خطةً مضادةً تكفل للمسلمين الغلبةَ، وهي تقومُ على توزيعِ القُواتِ الاسلاميةِ في شطرين:

الجيشُ الأولُ الذي يتصدَّى لهجومِ الكتيبةِ الاسبانية المُخْتارةِ حتى يستنزفَ قواها و يكسرَ

شوكتَهَا، والجيشُ الثاني الاحتياطيُّ الذي يدخلُ المعركةَ بعد ذلك، ليكمِّلَ سَحْقَ الجيشِ القشتاليِّ، بعد أنْ أضاعَ زهرةَ فرسانِهِ في مُحَاولاتِهِ الهجومية الأولى! وقد بُنِيت الخطَّةُ على خدعة حربية صغيرةٍ، لضمانِ نجاحِها، فأعطيتْ لقائدِ الجيشِ الأولِ جميعُ المظاهِرِ السُّلْطانيةِ، فرفرفتْ فوقَ رأسِهِ الأعلامُ الكبيرةُ، وحفَّ بموكبِهِ الحرسُ السُّلْطانيُّ، وقُرعتْ له الطبولُ، ونُفخ في الأبواقِ، لينخدعَ القشتاليون به، ويحسبوه السلطانَ المنصورَ، فيُلقوا بثقلِ فُرْسانِهم في المعركةِ لِقِتالِهِ، في حين يكون المنصورُ على رأسِ الجيشِ الثاني الاحتياطي، بانتظار اللحظَةِ المناسبةِ للخروجِ من وراء التلال، والدخولِ في المعركة بعد استنزافِ طاقاتِ الجيشِ القشتالي وإعياء المحاربين من فُرْسَانِهِ.. خُدْعَةٌ صغيرةٌ كما رأينا، ولكنها جاءتْ بالنَّصْرِ الكبيرِ، فحين ظنَّ

القشتاليون أنَّهم باتوا قريبين من النَّصْرِ، برزتْ لهم كتائبُ جيشٍ جديدٍ، وأطلَّ عليهم السلطانُ المنصورُ بالجموعِ الهائلةِ من فرسانِ الموحِّدين، وانقضوا على البقيةِ الباقِيَةِ من الجيشِ القشتاليِّ، فتراجعتْ صفوفُهُ وتقهقرتْ، واجتاح الموحدون مُعسكرَ الاسبان، وراحوا يطاردون الفُلولَ المنهزِمَةَ، وقد ولَّتِ الأدبارَ، وحلَّتْ بالقشتاليين هزيمةٌ لم يروا مثيلاً لها منذ أكثر من قرن!

وقد كان على المنصورِ أنْ يكفلَ للخطَّةِ التي وضعها السريَّة، فلا تنكشف لِعُيونِ الجواسيسِ الذين يعملون لحسابِ عدوِّهِ ألفونسو الثامنِ، لأنَّ نجاحَ الخطَّةِ مرهونٌ بسرِّيَتِهَا، وهذا يجعلُنا نقدِّرُ مدى الجهودِ التي بُذِلَتْ، للتمويهِ على الناظرين، ليحسبوا الوزيرَ القائدَ العامَّ أبا يحيى الهنتاتي هو السلطانُ

المنصورُ، خليفة الموحّدين، وقد نجح التمويهُ نجاحاً كاملاً، فلم يكتشف الاسبان حقيقةَ الأمرِ إلاّ بَعْدَ فواتِ الأوانِ كما رأينا.

ورابعُ عواملِ النّصْرِ الاسلاميّ في معركةِ الأرك شخصيـة المنصورِ العبقرية في إنسانيتها، الغنية بمواهبها القيادية والادارية والسياسية، فالمنصورُ الذي تمكّنَ بعزيمتِهِ وإقدامِهِ وحُسْنِ سياستِهِ وتدبيره من إقَامَةِ الأمْنِ والاستقرارِ في دولتِهِ الكبيرةِ، واكتسابِ محبةِ شعبِهِ والتفافِ النّاسِ حول حُكْمِهِ وقيادته، هو القائدُ الأعلى لتلك الجيوشِ الضخمةِ التي سارتْ تحت لوائهِ إلى النصرِ، وقد قاد جموعَها الزاخرةَ قيادةً مُثْلَى، دلّتْ على عظيمِ موهبَتِهِ في فَنِّ الحربِ والقيادةِ، والتخطيطِ والتنفيذِ، وأبْرَزُ ملامح موهبتِهِ في قيادتِهِ العسكرية حرصُهُ وهو القائدُ الأعلى لجيوش

الموحدين على الاستفادةِ من جميعِ الآراء التي يُبديها قُوّادُهُ وأركانُ حربِهِ، وتشجيعُهُ إياهم على تقديم عُصَارةِ تجاربهم إليه، لِيَسْتَعينَ بها في التخطيط للمعركة وتسيير عملياتها، وهذا ما رأيناه عند دَعْوَتِهِ القَادَةَ أشياخَ الجندِ ليُفاوضهم في مجلسِهِ الحربيِّ قَبْلَ اتخاذِ كلِّ قرارٍ للمعركةِ، وهو ما تبيَّناه أيضاً عند استشارةِ المنصورِ للقادةِ الأندلسيين وانتفاعِهِ بآراء ابنِ صناديد في التخطيط للقتال، وقد أسهم ذلك كلُّهُ في صُنعِ النَّصْرِ وتحقيقِ الغلبةِ على القشتاليين، ولو كان المنصورُ مُسْتبدًّا برأيه، مُسْتَخِفّاً بآراء قادتِهِ ونصائحهم لكان من الصَّعْبِ عليه أنْ يقودَ معركةَ الأرك إلى النتيجةِ المشرِّفَةِ المجيدةِ التي انتهتْ إليها، ولكنَّ شخصيةَ المنصورِ العظيمةَ، في تواضُعِها الانسانيِّ، لا يمكنُ لصاحِبها أن يكونَ مغروراً بنفسِهِ، مُسْتبداً برأيه، وقد وقفْنا عند بعضِ

المشاهدِ المؤثرة من إنسانية المنصورِ وتواضُعِهِ، عندما طافَ ليلةَ المعركةِ على جموعِ المسلمين، يُناشدهم أنْ يغفرُوا له ما قد يكون صدر منه نحوهم، وأنْ يُسَامحوه، لتصفوَ نفسُهُ في لقاء العدوِّ، حريصاً على لقاء ربه رضيّ النفسِ قريرَ العينِ؛ وقد كان لتواضعِ المنصورِ أثرُهُ الكبيرُ في نفوسِ المحاربين، إذ ألهبَ جماهيرَهُم حماسةً للقتالِ وعزْماً على الاستماتة لتحقيق النصر، وقد نشطَتْ نفوسُهُم، وخلصتْ نيّاتُهُم، وسَخَتْ أرواحُهُم، والحق أنَّ المنصورَ كان مُوَفَّقاً كلَّ التوفيقِ في التماس الوسائل التي تعين على رفعِ مَعْنوياتِ المحاربين تحت لوائه، لاستغلال الطاقاتِ الكامِنَةِ في النفوسِ المؤمنة، ورفعِها إلى البذْلِ والتضحيةِ والاستشهادِ، ومن أمثلةِ تلك الوسائلِ في معركةِ الأرك أمرُه بنَشْرِ رسالةِ التحدي التي بعث بها ملكُ قشتالة ألفونسو الثامنُ، ليدعوه إلى

الحرب، فأذيْعَتْ بين عامَّةِ المسلمين، وقُرِئتْ على جيوشِ الموحِّدين، وجموعِ المتطوعة والمجاهدين، ليُلهب التحدي حماستَهُم و يستثير عزيمتهم للجهاد، ومن تلك الوسائلِ أيضاً إذاعةُ الحُلْمِ الذي رآه المنصورُ ليلةَ المعركةِ، حين رأى مَلَكاً يهبطُ من السماء ليُبشِّرَهُ بالنّصْرِ القريبِ، فكان لإذاعةِ هذا الحلمِ السعيدِ بين كتائبِ الجيوشِ والمقاتلين أثرٌ في شَحْذِ العزائمِ وإعدادِ النفوس لخوضِ المعركةِ، والصمودِ في مناجزةِ العدوِّ حتى يتحققَ النصرُ الموعود!

إنَّ شخصيةَ المنصورِ العظيمةَ مِنْ أهمِّ عواملِ النصرِ الاسلامي في معركةِ الأرك على النصارى الاسبان، ففي شخصيةِ هذا السلطانِ المغربيِّ البطلِ ضُرُوبٍ من الكمالِ تجعلُ المؤرخين يُفيضون في الثّناء

عليه، و يَعُدُّونَ أيَّامَهُ ــ كما قدّمنا ــ زينةً للدهرِ، وشرفاً للإِسلام وأهلِهِ، كما قال بعضهم فيه.

* * *

وآخر ما نقفُ عنده من عواملِ النصرِ الاسلامي تمزُّقُ الممالكِ النصرانية الاسبانية، وتفرُّقُها وتعاديها، وتخوُّفُ بعضِها من بعضٍ، فقد تحملتْ مملكةُ قشتالة ضربةَ الموحِّدين القاضية وحدَها، في حين أنَّ الملوكَ النصارى الآخرين كانوا يحاولون مُحالفَةَ الموحِّدين، أو كانوا يتظاهرون بمدِّ يدِ العونِ إلى القشتاليين، و ينتظرون بلهفةٍ أنْ تُسْفِرَ المعركةُ عن هزيمةِ قشتالة، ليستريحوا من مطامِحِها في الاستيلاء على بعضِ أراضيهم، وضمِّها إلى مملكةِ قشتالة، وقد كانتْ هذه المملكةُ التي تُعَدُّ كُبْرى الممالكِ النصرانية يومذاك تسعى لتوحيدِها جميعاً في دولةٍ كبيرةٍ قادرةٍ على

تصفيةِ الوجودِ العربيِّ والاسلاميِّ في اسبانيا، وكان الملوكُ النصارى يكيدون لمملكةِ قشتالة، سِرّاً وعلانية، ليحتفظوا بعروشِهِم وامتيازاتهم. وقد استفاد الموحّدون من الوضعِ المتفجّرِ بين تلك الممالك النصرانية الشقيقة، ولم يتأخرِ المنصورُ عن مُحَالفةِ بعضها على بعضٍ، ليزيدَ تفرُّقَها شتاتاً، ويحول دون تلاقيها واتفاقِها ووحدتِها، وكانتْ معركةُ الأرك ضربةً قاضيةً قَصَمَتْ ظهرَ كُبْرى تلك الممالكِ، وكسرتْ شوكتَها، ووقفتْ اسبانيا النصرانية بعد هزيمةِ الأرك على عَتَبَةِ الهَلاكِ، فقد كانتْ جيوشُ الموحّدين تتأهبُ للقضاء عليها، وكان المنصورُ بذكائهِ وقوته ومضاء عزيمته وقدرته على انتهازِ الفرص، واستغلالِ منازعات الملوك النصارى، قادراً على إخْضَاعِ اسبانيا في جيلٍ واحدٍ، وتعميمِ الفتحِ الاسلاميِّ في شبه الجزيرة الايبرية كلِّها!

ولنختمْ هذه النظرةَ التحليليةَ بما يؤكدُ هذه الحقيقةَ الكبيرةَ من أقوالِ المؤرخ الألمانيِّ أشباخ:

«على أثر هزيمةِ الأرك تحرَّجَ مركزُ النصارى في شبه الجزيرة، واشتدَّ الخطرُ عليهم بصورٍ لم يعرفوها منذ بعيد، ولم يكفِهم أنَّ أعداء الصليبِ ضربوا معسكرهم أمامَ عاصمةِ اسبانيا النصرانية؛ ولكنَّ الخصوماتِ والحروبَ الطاحنة كانت تمزق الملوكَ النصارى، وتحول دونَ كلِّ اتحادٍ لمواجهة الخطرِ المشترك، ولم يُنقذْ اسبانيا النصرانية يومئذ من الهَلاكِ سوى إسراعِ زعيمِ الموحِّدين المنصورِ بِالعَوْدِ إلى المغْرِبِ، ثم موته الفجائي، الذي قضى على خطَطِ الموحِّدين الكبرى في الفتحِ».

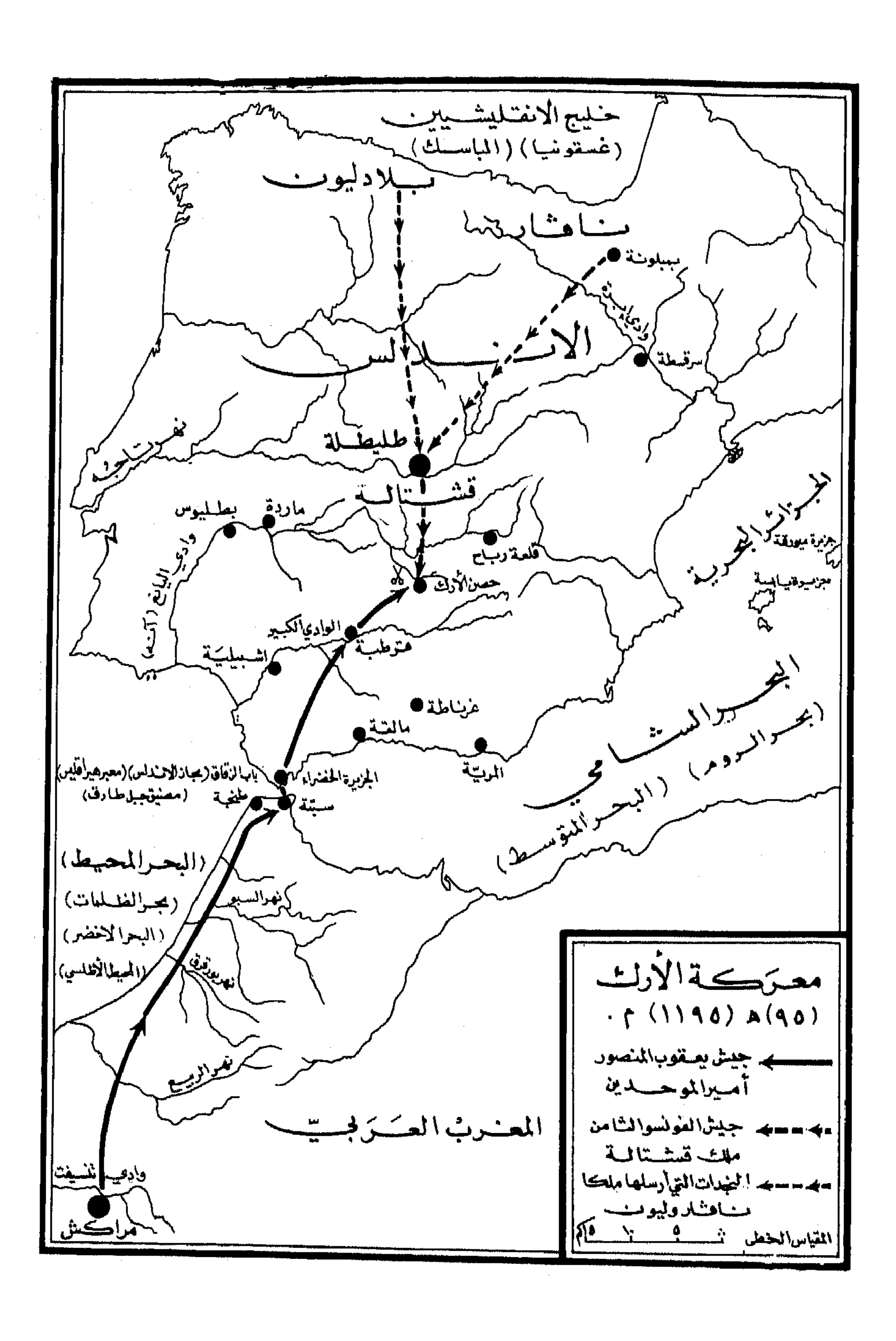
«وكان من المُحقق أنَّ شبه الجزيرةِ ستنضوي كلُّها تحت سلطانِ الموحدين، لو أنَّ محمداً، خليفةَ

أبيه المنصورِ، مضى في الحربِ بمثل ما كان عليه أبوهُ من الذَّكاء والقوَّةِ والمقدرةِ على انتهازِ الفُرَصِ، ذلك أنَّ اسبانيا النصرانيةَ لم تكنْ يومئذٍ سوى مزيجٍ مُضطربٍ من العناصرِ المُتَخاصِمَةِ. ولو أنَّ أميراً فَطِناً من أمراء الموحِّدين، سار على مبادىء السياسةِ التي اتُّبعت فيما بعد، في استغلالِ مُنَازعاتِ الملوكِ النصارى، والتوسُّلِ بمحالفةِ الضعفاء منهم إلى التدخُّل في الشؤونِ الداخلية، لاستطاعَ المسلمون أنْ يُخْضِعُوا اسبانيا كلَّها في جيلٍ واحدٍ. ومن المرجَّح أنَّ المنصورَ ـ وهو الذي استنَّ هذه السياسة ـ كانَ بوسعِهِ أنْ يُحققَ هذه الغايةَ، لو طال أَمَدُ حُكْمِهِ، وقد اتَّخذَ بالفعل في هذه السبيل خُطواتٍ ناجحةً!».

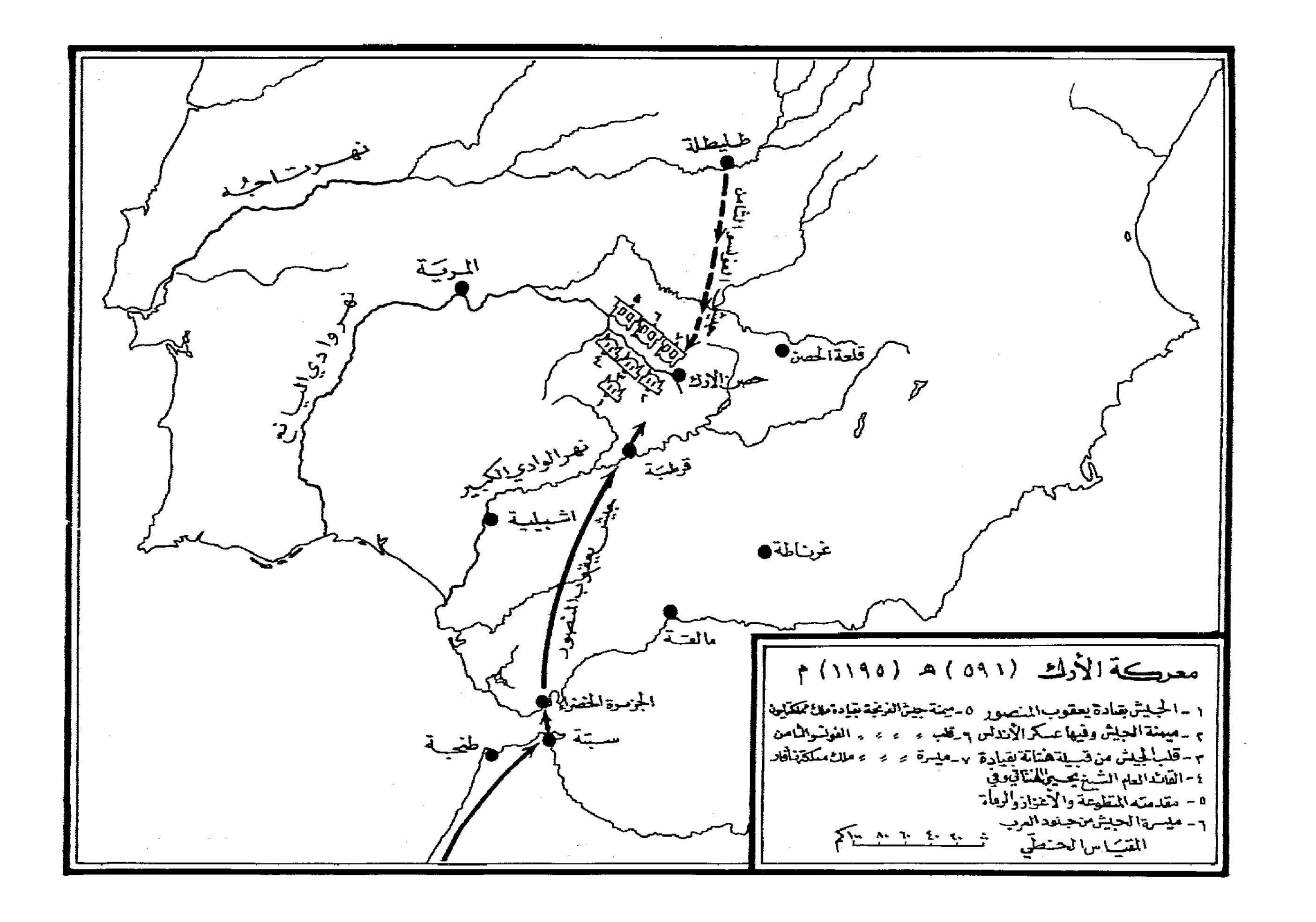
فليرحَمِ اللهُ المنصورَ العظيمَ بطلَ معركةِ

الأرك... وهذه الصفحاتُ ـــ على تواضعها ـــ تحيةُ
إكبارٍ وإجلالٍ لأمجادِهِ الخالدةِ، التي شهدَتْها
الأندلسُ الاسلاميةُ، يومَ كان أجدادُنا يروون
أرضَها الطيّبةَ بعرقهم ودموعِهِم ودمائهِم..
و يفجّرون في أرجائها ينابيعَ النُّورِ والحقّ والخيرِ
والحضارةِ...

المحتوى



خليج الانقليشيين
(غسقونيا) (الباسك)
بلاد ليون
نافار
بنبلونة
وادي إبرة
سرقسطة
الأندلس
نهر تاجه
طليطلة
قشتالة
ماردة
بطليوس
وادي يانة (آنة)
قلعة رباح
حصن الأرك
الجزائر البحرية
جزيرة ميورقة
جزيرة يابسة
الوادي الكبير
قرطبة
اشبيلية
غرناطة
مالقة
المرية
البحر الشامي
(بحر الروم)
(البحر المتوسط)
باب الزقاق (مجاز الأندلس) (معبر هيرقليس)
(مضيق جبل طارق)
الجزيرة الخضراء
طنجة
سبتة
(البحر المحيط)
(بحر الظلمات)
(البحر الأخضر)
(المحيط الأطلسي)
نهر السبو
نهر بورقرق
نهر الربيع
المغرب العربي
وادي تنسيفت
مراكش
معركة الأرك
(٩٥) هـ (١١٩٥) م.
جيش يعقوب المنصور أمير الموحدين
جيش الفونسو الثامن ملك قشتالة
النجدات التي أرسلها ملكا نافار وليون
المقياس الخطي


معركة الأرك (٥٩١) هـ (١١٩٥) م
١ - الجيش بقيادة يعقوب المنصور
٢ - ميمنة الجيش وفيها عسكر الأندلس
٣ - قلب الجيش من قبيلة هنتاتة بقيادة
٤ - القائد العام الشيخ يحيى الهنتاتي وفي
٥ - مقدمته المتطوعة والأغزاز والرماة
٦ - ميسرة الجيش من جنود العرب
٥ - ميمنة جيش الفرنجة بقيادة ملك مملكتين
٦ - قلب " " " الفونسو الثامن
٧ - ميسرة " " " ملك مملكة نافار
المقياس الخطي
٠ ٢٠ ٤٠ ٦٠ ٨٠ ١٠٠ كم
طليطلة
نهر تاجه
المرية
نهر وادي يانة
حصن الأرك
قلعة الحصن
قرطبة
نهر الوادي الكبير
اشبيلية
غرناطة
مالقة
الجزيرة الخضراء
سبتة
طنجة

معارك وبطولات حربية اسلامية وعربية



الحدث الحمراء
وادي لكه
المنصورة
ذي قار
وادي المخازن
بدر الكبرى
عمورية
الزلاقة
فتح قسطنطينية
عين جالوت
ميسلون
الأرك
الجبل الأخضر
اليمامة
نهاوند
احد
بلاط الشهداء
القادسية
اليرموك
حطين

المؤسسة العلمية للوسائل التعليمية
حلب - سورية - المنطقة الحرة -